





بونابرت فى الشرق الإسلامى

(القاهر المقهور)

المشروع القومى للترجمة

734

تأليف : أحمد يوسف

ترجمة : أمل الصبان

تقديم : أحمد زكريا الشلق

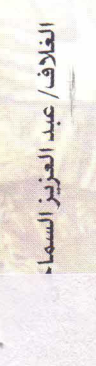




"العزة لله. لا إله إلا الله. محمد رسول الله. وأنا من أصدقائه". بتلك الكلمات التى وجهها نابليون الابن البار لعصر التنوير لفقهاء الإسلام أعطى لحملته على مصر بعدًا دينيا غريبًا. وقد كان للنبى محمد (صلى الله عليه وسلم) على الرغم من غيابه دور بارز وأثر كبير على الشعب المصرى ومقاومته للحملة. وقد بهر النبى بوصفه مشرعا ومؤسسًا إمبراطورية نابليون بونابرت الذى حاول أن يقتفى خطاه.

وعلى الرغم من ذلك تميز هذا اللقاء العقلانى الأول بين الشرق والغرب بالهوة الواسعة التى تفصل بين شعور مزدوج : الولع والرفض، وكانت تلك الهوة الخطيرة هى التى باعدت بين الغرب والإسلام. وخير دليل على ذلك أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، والحروب التى أعقبتها.

ويحاول أحمد يوسف من خلال دراسة متأنية للنصوص، ولا سيما المصرية منها أن يثبت أن القاهر لا بد من أن يقهر من جانب المقهور.



المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٧٣٤
- بونابرت فى الشرق الإسلامى(القاهر المقهور)
- أحمد يوسف
- أمل الصبان
- أحمد زكريا الشلق
- الطبعة الأولى: ٢٠٠٥

هذه ترجمة كتاب:

Bonaparte Et Mahomet

Le Conquérant conquis

Ahmed Youssef

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 Fax : 7358084

المحتويات

الموضــوع	الصفحة

تقديم

أحمد زكريا الشلق

يعالج هذا الكتاب قضية متجددة هى قضية العلاقة بين الغرب والمجتمع الإسلامى وهى قضية اتخذت أشكالاً وألواناً من الصراع والمواجهة، كما اتخذت فى بعض مراحلها أشكالاً من التواصل والتعاون، إنها ليست قضية ١١ سبتمبر ٢٠٠١ كما يعتقد البعض، ولكنها ترجع إلى المراحل الأولى من ظهور الإسلام وحضارته كمنافس أيديولوجى للغرب وحضارته، وتمتد عبر تاريخ طويل من المواجهة بين الإسلام والمسيحية، بلغت نحو ثلاثة عشر قرناً، زادت من حدتها ونتائجها السيطرة الإمبريالية الغربية التى عانت منها معظم البلاد الإسلامية مما خلف آثاراً سيئة فى علاقات العالمين .. وهذا العمل يشكل صفحة من صفحات هذه العلاقة أو المواجهة، وهى صفحة احتلال بونابرت أرض مصر فى أواخر القرن الثامن عشر كبداية للسيطرة على الشرق الإسلامى كله، وهو ما كان يحلم به منذ كان ضابطاً صغيراً مسكوناً بسحر الشرق والرغبة فى السيطرة على عالم الإسلام ، حين دون فى يومياته أن «المجد كله يأتى من الشرق مثل الشمس» .

والمؤلف هو الكاتب المعروف الدكتور أحمد يوسف الذى درس بكلية الألسن بالقاهرة ، تلك المدرسة التى أسسها رفاعة الطهطاوى بعد عودته من فرنسا لتكون جسراً لنقل الثقافة الأوروبية إلى مصر وإلى اللسان العربى على وجه العموم . وقد استكمل مؤلفنا دراسته العليا بجامعة السربون ، حيث حصل على درجة الدكتوراه منها عام ١٩٩٢م عن أطروحة عنوانها « مصر فى الخيال الجمعى الفرنسى » والتى كانت بداية سلسلة من الدراسات العلمية الجادة التى آثر أن يضعها بالفرنسية .

ويبدو أن مؤلفنا لديه مشروع بحثى يتعلق بدراسة علاقة الغرب بمجتمعنا ، دراسة علمية تتجاوز بحثنا عن مظاهر تأثرنا بحضارة الغرب وأشكال عدوانه علينا ، إلى بحث جذور وأصول ذلك ، ودراسة أسبابه الحقيقية التى اهتم بها فلاسفتهم منذ بداية عصر النهضة الحديثة وإلى يومنا هذا ، متخذاً من علاقة فرنسا بمصر محوراً رئيسيًا لذلك المشروع .

فقد نشر عام ١٩٩٤م أول ترجمة عربية للمخطوط السرى الذى وضعه الفيلسوف الألمانى ليبنتز عام ١٦٧٢م وقدمه للملك لويس الرابع عشر ملك فرنسا آنذاك مقترحًا فيه غزو مصر والشرق . ذلك المخطوط الذى ضرب على أوتار أسطورة مصر التى استمرت فى الخيال الفرنسى باعتبارها المفتاح إلى القدس (كما ذكر أول ملك فرنسى صليبى يغزو مصر قبل لويس التاسع الذى أسر فى المنصورة) ، وزكتها كتب الرحالة ونشاطات التجار والجواسيس والقناصل وبعثات المبشرين والمستكشفين ، والتى كشفت عن أهمية مصر درة التاج العثمانى ، وكانت هذه المذكرة تمثل إغراء لملك فرنسا لغزو مصر باعتبار ذلك عملاً مقدسًا ، ورغم أن الملك لم يستجب له حينذاك لعدم رغبته فى التضحية بصداقة الأتراك والسلطان العثمانى ، إلا أن المشروع لم يمت تمامًا ، وإنما بعث فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر فى أشكال أخرى إلى أن قررت حكومة الإدارة تنفيذه وعهدت إلى بونابرت بأمر هذه المهمة، وليقوم بتجسيد حلم فرنسا القديم؛ ولذا فإنه عكف على دراسة كل التقارير والخرائط ومذكرات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى مصر خلال القرون الثلاثة السابقة على الغزو .

والحاصل أن مؤلفنا أعقب ترجمته لمخطوط ليبنتز بنشر دراسة أخرى عنوانها «الولع الفرنسى بمصر ، من الحلم إلى المشروع» ، ونشرها عام ١٩٩٨م وترجمتها الدكتورة أمل الصبان - مترجمة هذا العمل) تناول فيها ظاهرة سحر مصر فى الذاكرة الجمعية للفرنسيين ودورها الأساسى فى تحول هذا الخيال إلى مشروعات سياسية ضخمة ، بعد أن كانت مجرد دعوات فلسفية ونشاطات ثقافية فاستعرضت الدراسة تبلور « الحلم بمصر » فى ذهن عدد من الشخصيات الشهيرة من المفكرين والفنانين

الفرنسيين منهم راموا ، وفولتير ، وشاتوبريان ، وجيراردى نيرفال وغيرهم .. منذ عصر القديس لويس الذى كاد أن يحكم مصر وحتى بونابرت الذى اغتصبها وأحبها كحسناء مارست سحرها الذى لم ينج منه أحد من المشاهير الفرنسيين ، سواء كانوا ملوكًا أو كتابًا أو فلاسفة .. لقد فتنوا جميعًا بجمالها الخلاب الذى ظل دافعًا للغزو .. وهكذا قدم هذا الكتاب تحليلاً تاريخيًا دقيقًا للأحلام والمشروعات التى اتخذت مصر مادة لها منذ أواسط القرن الثالث عشر وحتى أواخر القرن الثامن عشر .

* * *

ولابد من أن نوضح فى البداية أن ترجمة هذا الكتاب وأمثاله إنما يفيدنا فى فهم ما يدور حولنا وبين ظهرانينا الآن من صراعات وعلاقات بين الغرب والمجتمع الإسلامى، باعتباره يسلط الأضواء على الجذور الفكرية للمصالح وصراعات القوى والحملات العسكرية التى تغلفها الدعوات « الإنسانية » والرسالات « الحضارية » والادعاءات « التحديثية » التى يغلف بها الغرب أطماعه ونواياه .. فهو يثبت أن الصراع الثقافى بين الغرب والشرق ، بين الإسلام والمسيحية ، يتواصل ليشكل جوهر السياسة الدولية حتى يومنا هذا .

ورغم أن عنوان الكتاب فى أصله الفرنسى الذى صدر به عام ٢٠٠٣م يحمل عنوان « بونابرت ومحمد ، القاهر المقهور » أى أنه ينصب بشكل أساسى على أحلام بونابرت فى السيطرة على الشرق الإسلامى ، بدءًا بمفتاحه « مصر » إلا أنه تتبع القضية فى مقدمة دالة على موضوعه تناولت بتركيز ميراث الماضى بين الغرب الأوروبى والشرق الإسلامى ، أى منذ الصراع التاريخى بين الإسلام والمسيحية ، وانتصارات الجيوش الإسلامية المذهلة السريعة على أراضى الإمبراطورية الرومانية حتى معركة بواتييه عام ٧٣٢ التى هددت الحضارة الغربية فى عقر دارها ، ثم نشأة الصراع الثقافى بين الشرق والغرب خلال العصور الوسطى والذى كانت الحملات والحروب الصليبية « المضادة » حلقة تالية منها ، ومنها حملة الفرنجة لغزو مصر والتى لم تنجح

إلا فى احتلال دمياط عام ١٢١٨م لتعقبها حملة أخرى قادها ملك فرنسا لويس التاسع بنفسه عام ١٢٤٤م والتى فشلت هى الأخرى فى تحقيق أهدافها باحتلال مصر «مفتاح بيت المقدس» وإن كانت قد أدخلت مصر الإسلامية بصورة مؤثرة فى بؤرة التاريخ السياسى والثقافى لفرنسا .

وبعدفشل الحملات الصليبية بدأ الغرب جولة جديدة من الصراع مع الشرق الإسلامى منذ النصف الثانى من القرن الثالث عشر اتخذت من الثقافة مجالاً لها . وكانت بدايتها إنشاء كراسى اللغة العربية فى باريس وأكسفورد وغيرها من حواضر الغرب المسيحية لتزداد معرفة الإسلام وحضارته ، ومن ثم كانت حركة « الاستشراق » التى أنتجت حركة الترجمة العلمية للتراث الإسلامى كما هو معروف . وهكذا انتقل الغرب إلى مرحلة من « الفهم » ثم « التفاهم » والتى استبدل فيها الصراع الحربى بجهود المبشرين ونشاط التجار والوكالات والقناصل ، ولتتحول الأيديولوجية المناهضة للإسلام إلى روح المنافسة السياسية والاقتصادية والتى اتخذت من موانى البحر المتوسط الإسلامية مجالا لها .

وفى الوقت الذى بدأ الأوروبيون يؤسسون فيه لعصر من « النهضة » كان العثمانيون المسلمون قد وضعوا أسس دولة قوية طموحة يجددون بها عصور الدول الإسلامية المتعاقبة ، ويعبرون البسفور بجيوشهم ويحتلون مدينة قسطنطين ويحولونها إلى عاصمة للمسلمين « إسلامبول » ، ثم يضعون يدهم على مصر القلب النابض للشرق الإسلامى ، وتبلغ جيوشهم أسوار فيينا عام ١٥٢٩م ، ويسعى ملك فرنسا ليحصل على توقيع السلطان العثمانى على معاهدة عام ١٥٣٥م تتيح لبلاده «امتيازات» كبيرة داخل ولايات الدولة العثمانية ، وليقيم أول علاقات تحالف مع العالم الإسلامى تطوى صفحة الحروب الصليبية .

وقد أتاحت معاهدة الامتيازات إقامة مبادلات تجارية ضخمة مع مصر ، كما أتاحت افتتاح قنصليات لحماية الرعايا والتجار الأوروبيين ليلعب القناصل المولعون بالشرق والإسلام أدوارهم فى شحذ همم الحكام لغزو مصر ، وكان دور القنصل

الفرنسي « دى ريير » مشهوراً فى ذلك خاصة وأنه أتقن العربية وترجم القرآن وقدم لبلاده تقارير مهمة عن أوضاع مصر المادية والسياسية ، وفى نفس الاتجاه سار الفيلسوف ليبنتز الذى جاء ليدفع ملك فرنسا لغزو مصر وتوجيه ضربة قاضية للإسلام بشن حرب صليبية جديدة ينتزع بها مصر من العالم الإسلامى ومن الدولة العثمانية ، وقد فصل لنا المؤلف هذا المشروع وخططه وخطواته ، ورغم أن هذا المشروع لم يقيض له أن ينفذ فى حينه ، وإنما جرى إحياؤه من جانب حكومة الإدارة فى عهد الثورة التى درست المشروع وقررت تنفيذه ، وعهدت إلى بونابرت بهذه المهمة.

وكان القائد الشاب بعد أن غزا إيطاليا قد بدأت تجيش بصدره ذكرى الإسكندر الأكبر وقيصر وعالم البحر المتوسط ، وصارت تداعب خياله أحلام الإمبراطورية ، فأصبح تواقًا للقيام بهذه المهمة ، بعد أن ألهمت روحه عشق الشرق وعالم الإسلام كتابات عالم المصريات والإسلاميات كلود سافارى ، ورحلات فولنى ، فقد أودع سافارى خلاصة رحلاته ودراساته فى كتابيه « رسائل عن مصر » و«حياة محمد»ﷺ «اللذان أعجب بهما الجنرال الشاب أيما إعجاب ، حتى أنه أمر بتوزيع « رسائل عن مصر » على جنوده ليشحذ هممهم وحماستهم للعالم الذى سوف يغزونه ، أما كتاب فولنى الشهير « رحلة فى مصر وسوريا » الذى نشر عام ١٧٨٧م فقد قدم معلومات مهمة وخدمات جليلة ، حتى للعسكريين ، فاعتبره بونابرت توراة مغامراته الإسلامية فى مصر ، وخص به قادة جنوده !

وبعد كل التمهيدات السابقة والمشروعات والأحلام آن لحكومة الإدارة أن تضع المسألة موضع التنفيذ ، وآن للجنرال الشاب أن يحول أحلامه إلى حقيقة وأن يسيطر على عالم الإسلام ، على الشرق الإسلامى ، وأن يضم إلى أحلامه الإمبراطورية «أمة محمد» ﷺ ذلك النبى الذى أثار خياله ، لقد كان بونابرت يهفو إلى السيطرة على قلب العالم القديم ، وبدا له أن الإسلام هو الذى سيحقق له هذه الغاية ؛ لذا قرر أن يبنى له إمبراطورية منطلقًا من الصفر ، كما فعل النبىﷺ ، قبل اثنى عشر قرنًا .. لكنه قرر ألا يبنيها « بالانقضاض » على عالم الإسلام وهدمه من الخارج والاستيلاء عليه ، إنما « باختراقه » واحتوائه من الداخل ، وإن اقتضى منه ذلك ادعاء اعتناق الإسلام واحترام نبيه ﷺ .

لقد كان يدرك ، بما قرأ ، أنه رغم عدته وعتاده وانتصاراته المتلاحقة ، ودخوله القاهرة التى ألهبت خياله ، أن هناك قوة واحدة هى التى تستطيع التصدى لأحلامه والإضرار بمشروعاته ، وهى قوة إيمان المصريين وتمسكهم بالإسلام ، كان إدراكه لذلك من بين أسباب استصحابه جيشًا من العلماء .. ربما ليواجه الدين بالعلم .. وليخوض صداماً بين العقليات ، أو ليشن « غارة علمية » إلى جانب الغزو العسكرى ، ليخضع أرض مصر لدراسة علمية ، فيحسن تعميرها واستعمارها .. لذلك شرع فى تبنى سياسة دينية ، ليغزو بها قلوب المسلمين ، فذكر فى أول بيان له للمصريين بأنه عدو للكنيسة وأنه يحترم دين الإسلام ونبيه محمد ﷺ ، وأنه سيقوم بترميم المساجد ، وشارك بنفسه فى الاحتفال بالمولد النبوى وأمر بتعليق الزينات والقناديل ، بل إن إشادة بونابرت بالإسلام وبعظمة النبى ﷺ أثار دهشة المصريين وعلمائهم ، ووضع علماء الأزهر فى مأزق ، حتى قام بعضهم بدفعه لاعتناق الدين بدافع من شعور بتصديقه ، أو لوضعه موضع اختبار حقيقى ، وقد أدى ذلك إلى انتشار الشائعات بأن كبار المشايخ يعلمون الشريعة لبونابرت وكبار جنرالاته ، وأن الفرنسيين معجبون بالنبى ﷺ ، وأن قائدهم يحفظ القرآن !

ومؤلفنا يرى أنه إذا كانت ثورة القاهرة الأولى وحروب الشام لم تسمح لبونابرت بتعميق فكره عن الإسلام أو بالاعتناق الجاد له ، فإن رغبته فى ذلك بحق كانت جادة .. غير أننا نعتقد أن هذه السياسة الإسلامية المتملقة التى اتبعها بونابرت لم تنطل على المصريين ، وهو نفسه قد اعترف فى مذكراته بأن منشوراته وبياناته إلى المسلمين لم تكن غير احتيال ، بل لقد تهكم على البيان الذى قدم فيه نفسه فى صورة ملهم يتلقى عن الرسول الإلهام والتوجيه ، وأضاف بأن ذلك كان احتيالاً من أعلى طراز .. وذكر أن الفرنسيين الذين كانوا معه لم يجدوا فى ذلك غير مادة للسخرية (راجع : كتاب هنرى لرونس : بونابرت والإسلام ، ترجمة بشير السباعى) .

كذلك بدأ بونابرت بإنشاء « ديوان القاهرة » الشهير الذى ضم عشرة من المشايخ المصريين للمشاركة فى شئون الحكم وتقرير الأمور .. وقد رأى مؤلفنا أن هذا الديوان

«كان المؤسسة الوطنية المصرية الأولى ذات الطابع العلمانى» مستمداً هذا المعنى من مرسوم تأسيسه، بل إن مؤلفنا يرى أن جلسات الديوان مثلت بالفعل بالنسبة للعلماء «التجربة الديمقراطية الأولى وميلاد أول إدارة مصرية بمعنى الكلمة منذ عهد الفراعنة ، وأنها أول تجربة للعلماء ممثلى الشعب لإدارة بلدهم ... إلخ» لكن ينبغى النظر إلى هذه المسألة من وجهة نظر أخرى ترى أن الهدف الأساسى من هذا الديوان ، بل والدواوين الأخرى فى الأقاليم ، لم يكن تدريب المصريين على الحكم الذاتى ، أو الديمقراطية فبونابرت نفسه كان يضيق بالحكم الديمقراطى فى فرنسا ، ولهذا بقيت السلطة الفعلية فى مصر فى أيدى الفرنسيين إلى أقصى حد ، مما جعل إنشاء الدواوين بهدف الاستفادة بما لأعضائها من علماء الأزهر من مكانة بين الناس ، وللاستعانة بسلطانهم فى إخضاع البلاد وتوفير « وسيلة محلية » للربط بين الحكام الجدد الغرباء وبين المحكومين .

ويحتفل الكتاب بالمعهد العلمى الذى أقامه الفرنسيون فى مصر ، بل يضعه فى حالة صدام مع الثقافة السائدة فى مصر ، ثقافة المسجد ، فيحدثنا عن المعهد وتأسيسه وعلمائه ، وعن مكتبة المعهد ، ومطبعته والأبحاث التى تعد فيه ، ورئيسه «مونج» ونائبه «بونابرت» الذى قدم مداخلات رسمت الخطوط العريضة لأبحاث العلماء، وقد رأى المؤلف أنه بينما قرر علماء الحملة التأقلم مع الأسلوب المصرى ، وأنهم أحسنوا استقبال العلماء المصريين فى المعهد ، فإن المسجد (يقصد علماء الدين) رفض يد بونابرت الممدودة إليه ، وتجاهل أبواب المعهد المفتوحة أمامه .. وذكر أن قيام ثورة القاهرة الأولى قد أوقفت ذلك كله ، ويخرج بنتيجة مؤداها أن العلماء المسلمين رفضوا الغرب وعلومه ، وأنه رغم نجاحهم فى طرد الغزاة الفرنسيين ، إلا أن بونابرت كان قد حقق انتصاراً حقيقياً على أتباع محمد ﷺ ، وأن هذا الانتصار كان ذا طبيعة ثقافية لا عسكرية ، وأن الجيش الفرنسى هزم ، لكن العلم الفرنسى انتصر ، وأن دهشة علماء الدين مما رأوه داخل المعهد كانت أولى علامات اعترافهم بقدرة الغرب وتفوقه ، وأنهم باتوا يدركون حجم الهوة التى تفصل بينهم وبين عالم العلوم الحديثة بأسره .

ورغم الأهمية التى أضفاها تأسيس المعهد على نشاط الغزاة « وإطلاعه » العلماء المصريين على نمط جديد من الحضارة الغربية الحديثة ، إلا أنه لا ينبغى المبالغة فى تقدير أهمية هذا المعهد لمصر والمصريين ، فبالرغم من أنه تأسس بهدف تقدم العلوم والمعارف بمصر ، والقيام بأبحاث ودراسات علمية وصناعية وتاريخية خاصة بمصر ، وإبداء رأيه للحكومة فيما تستشيره من مسائل ... إلخ إلا أنه لم يكن مؤسسة لتعليم المصريين أساسًا ، إذ عنى علماء المعهد بأمجاد مصر الغابرة ، وبكشف العوامل الطبيعية والصناعية والتاريخية لها ، مع الجمع بين الدراسة العلمية النظرية والجوانب التطبيقية ، تلك التى اطلع عليها العلماء والمشايخ المصريين عند زيارتهم للمعهد والتى سجلها الجبرتى تسجيلاً عبّر فيه عن إكباره « رغبتهم فى الإطلاع على الأشياء والمستغربات والفحص عن الجزئيات » ، كما عبّر عن دهشته من التجارب التى رآها وعلّق بأن هؤلاء العلماء يصنعون أشياء « لا تسعها عقول أمثالنا » مما يكشف عن إدراكه للهوة التى تفصل بين الحضارتين ، وتبرز الجانب العقلانى .. لكن هل تخطت المسألة نطاق الدهشة ، وشملت أحدًا غير الجبرتى وبعض رفاقه ممن زاروا المعهد ؟ كلا . لقد كان على مصر أن تنتظر جيلاً جديدًا يتعامل مع حضارة الغزاة على نحو آخر وبإرادة جديدة .

* * *

ومن خلال دراستنا للمخطوطات والمشروعات والتقارير المتعلقة بغزو مصر، والتى احتفظت بها الحكومات الفرنسية المتعاقبة، قبل إنفاذ الحملة عام ١٧٩٨م ، سنلاحظ أن هـــذه التقـــارير تصـــف المشـــروع بأنه سيمثل حربًا مقدسة، ففى مذكرة ليبنتز «أنه لا يوجد شىء أكثر عدلاً من الحرب المقدسة ، فهى مشروع لخير الإنسانية ، ومصلحة المسيحية وخلاص التعساء الذين يرجون مساعدتنا من أجل القبر المقدس » . وفى تقرير ديدييه « ملاحظات عن مصر » ذكر أن على فرنسا أن تبذل كل جهودها «لاكتساب ممتلكات من شأنها الإضافة إلى عظمتها ومجدها وثرواتها » . ونحن نعتقد

أنه لا شيء في هذه التقارير يتحدث عن تحديث مصر أو نهضتها ، فهذه ليست رسالة الغزاة والفاتحين ، حتى إن حدثت عرضًا ، وإنما الأهداف كانت واضحة ، غزو استعماري وأحلام إمبراطورية ، وصراع مع بريطانيا ... إلخ ، وحتى رغم تصريح حكومة الإدارة لبونابرت باصطحاب « لجنة العلوم والفنون إلى مصر .. بهدف تحسين أقدار المصريين » ، ورغم وجود صيغة « خدمة العلم » في التعليمات التي صدرت لبونابرت عشية رحيله إلى مصر ، فإن المقصود من ذلك هو دراسة الأرض التي سوف يستولون عليها ويقيمون فيها ، على أساس علمي ، وإجراء وصف شامل لأراضي الفراعنة الأقدمين ، ودراسة موارد وإمكانيات مصر الحديثة دراسة علمية ليحسن استثمارها لصالح المستعمرين بالدرجة الأولى .

لذلك يبدو من المبالغة القول بأن الانتصار الحقيقي لبونابرت على المصريين كان ذا طبيعة ثقافية ، لا عسكرية ، استنادًا إلى المعهد العلمي « وصف مصر » - وأن الحضارة الحديثة قد دخلت مصر أثناء الاحتلال الفرنسي وأثرت فيها تأثيرًا كبيرًا بجهود العلماء الفرنسيين الذين رافقوا الحملة ، فرغم أن عملهم سيظل شاهدًا على مدى تقدمهم في البحث العلمي الفرنسي ، إلا أنه يجب التأكيد على أن أعظم ما حققوه هو تقديم مصر ووصفها وصفًا دقيقًا للفرنسيين وللغرب ، أكثر من تقديم ثقافة وحضارة الغرب لمصر أو التأثير في المصريين .

لقد أورد مؤلفنا اقتباسًا عن برنا رد لويس كان يعلق فيه على الأحداث التي وقعت في معركة بواتييه عام ٧٣٢ ، ووصف تعليق لويس بأنه «أعطى المعركة بُعدها الحقيقي» بالرغم من أن هذا المؤرخ الذي تفيض كتاباته بالتعصب للصهيونية ، والتي تكرس المركزية والهيمنة الأوروبية ، قد وصف جيوش المسلمين بأنها « حشد فوضوي من العساكر ، انتقل للبحث عن الغنائم ، وإن بنية تأسيس إمبراطورية .. » ليجرد الفاتحين المسلمين من السبب الرئيسي لفتوحاتهم وجهادهم لنشر راية الإسلام .

ومع تقديرنا للجهد الكبير الذي بذله المؤلف ، وما بذلته المترجمة ، ومع احترامنا لحرية التفكير والتعبير ، إلا أننا نعتقد أن لغة الكتابة الموجهة للقارئ الفرنسي

والغربى عموماً ، تختلف فى بعض صياغتها عن تلك الموجهة إلى القارئ العربى ، خاصة فيما يتعلق بدلالة الألفاظ والصياغات فى سياقها الاجتماعى ، ولعل هذا ما دعا مترجمة هذا العمل إلى التصرف فى عنوان الكتاب عند ترجمته ، والأمر كذلك . فقد يقتضى التصرف فى بعض الصياغات التى منها : أن بونابرت كان يجهز جيشه للقاء النبى فى القاهرة ، ومحاولات بونابرت التقرب من النبى ، وتعبير « فرنسة الإسلام » ، «الإسلام المصرى» ... إلخ ، وكم كنا نود أن يوضح بعض الأفكار التى وردت بالخاتمة حتى لا تبدو وكأنها حقائق مؤكدة ، مثل تقرير : أن طه حسين كان من الأنصار المتحمسين للطابع الفرعونى للنهضة المصرية ، وأن عبد الناصر قام بقلب النظام الملكى فى مصر بمساعدة الأمريكان ، وأنه أسس « الجمهورية الثانية » على اعتبار أن «الأولى» قد أسسها بونابرت بمساعدة خليفتيه كليبر ، ومينو فى مصر !!

وعموماً فإن الكتاب فى مجمله يشكل جهداً علمياً طيباً ، استطاع فيه الدكتور أحمد يوسف أن يقدم لنا من خلاله عرضاً مثيراً وشيقاً يجمع بين الأدب وتاريخ الفكر تتبع فيه علاقة فرنسا بمصر فى تاريخهما المشترك فى فترة من أخصب فترات العلاقات وأكثرها ثراء ، على خلفية التاريخ العام لعلاقة الغرب بالعالم الإسلامى ، مستنداً إلى المصادر الأصلية والأصيلة للموضوع ، والتى برع فى الاستفادة منها والاقتباس عنها . فتحية إليه وإلى الدكتورة أمل الصبان على جهدها الكبير فى النفاذ إلى جوهر الكتاب الأصلى ، وتقديمه كما لو كان مؤلفاً فى صياغة سلسة ومشرقة .

* * *

مقدمة

إرث الماضى

تتسم مسيرة مصر الإسلامية بالغرابة فى نطاق السياسة الفرنسية، ويميز المؤرخون بصورة واضحة بين صورتين لمصر فى الذاكرة الجمعية الغربية: صورة مصر الفرعونية المزدهرة بكل المعارف والتى ترجع - قبل قصص التوراة - إلى جذور الحضارة الغربية ذاتها، وصورة مصر الإسلامية الخلابة بنوع من السحر الغامض والقوى، فالأمر يتعلق من ثم بتاريخ طويل محفوف بالمنافسة وبالكثير من الأفكار المسبقة والمخاوف وهذا الازدواج الخيالى للغرب إزاء مصر ينشأ مما يطلق عليه توينبى Toynbee "سيكولوجية الاتصال الثقافى" (1) بين الحضارات، فقد تأسس اتصال الغرب بالإسلام بصورة عامة على العمل الحربى والحساب السياسى الذى لم يغب قط حتى فى أوج أوقات التبادل التجارى أو الثقافى.

ومن السذاجة بمكان إيعاز كل هذه المخاوف الغربية للمنافسة بين الإسلام والمسيحية أو لذكريات الحروب الصليبية المؤلمة، فلقد كان لكل دين منهما حروبه الصليبية وجهاده، ويتعين التذكير بالسرعة المذهلة التى انتشرت بها الجيوش الإسلامية على أراضى الإمبراطورية الرومانية التى كانت تعتنق المسيحية أنذاك. فبعد قرن من وفاة الرسول أى من عام ٦٢٣م وحتى معركة بواتييه عام ٧٣٢ وجد الغرب نفسه مهدداً بطريقة خطيرة لا فى أراضيه ولكن بصفة خاصة فى حضارته، وبتعبير آخر مهدداً فى جلده ودينه وروحه.

ولقياس مدى الرعب الأوروبى آنذاك علينا تخيل دبابات عراقية تغادر بغداد صباحًا لحصار باريس بعد الظهر !

ولم تكن المرة الأولى فى التاريخ أن يعبر جيش هذا العدد الهائل من الحدود، ولكن المشكلة كانت تتمثل فى أن الجيوش العربية كانت تحمل معها الإسلام بقوته وتعطشه للنصر ورغبته فى فرض حضارة جديدة أو بالأحرى نظام عالمى جديد.

وهكذا نشأ هذا الصراع الثقافى غير العادى بين الإسلام والمسيحية أو بصورة أكبر بين الشرق والغرب ، وهذه الجدلية لا تزال تشكل فى يومنا هذا السياسة الدولية.

ولفهم هذه الجدلية المذهلة، يكفينا أن نذكر باختصار مسيرة الأحداث غداة معركة بواتييه عام ٧٣٢م.

وقد أعطى برنارد لويس Bernard Lewis لهذه المعركة بعدها التاريخى الحقيقى فقال عنها إنها حشد فوضوى من العساكر انتقل للبحث عن الغنائم ولكن بنية تأسيس إمبراطورية.

"ففى بواتييه لم يلتق الفرنجة إلا بجماعة من العساكر التى تشن غارات خارج حدودها البعيدة بآلاف الكيلومترات، ووصلت منهكة القوة بعد أن بلغت هذه القوة مداها ثم استنفدت" (٢).

وعشية هذه المعركة كان الإسلام قد بلغ أقصى انتشار له، فكانت جغرافيته تشبه الجناحين المفرودين القويين لنسر يقع جسده بين مصر وسوريا، ويمتد جناحه الأيمن حتى الهند والأيسر حتى حدود فرنسا الحالية حيث توجد مدينة بواتييه Poitiers، التى تجسدها هذه الشخصية المبهمة لشارل مارتيل، وهكذا وجد الغرب المسيحى نفسه محاطًا بثقافة جديدة شديدة التوسعية ولم يتأخر فى اتخاذ رد فعل.

وبينما كان الغرب يخضع لتأثير الدين الجديد، كان المسلمون يشيدون حضارتهم الرائعة فى مراكز عدة "للتنوير" مثل دمشق ثم بغداد ثم القاهرة دون إغفال مراكز المعرفة الكبرى الموجودة فى تونس وما وراءها فى الأندلس.

وولد الدين الجديد الذى ظهر فى الصحراء حضارة مائية من حدائق وعلوم مائية وأسطول بحرى لعبور البحر المتوسط، وفى الداخل زودت المدن بمكتبات كبيرة ومراكز بحوث ومستشفيات ومدارس ترجمة.

وعلى المدى الطويل أفادت هذه الانطلاقة الإسلامية الغرب، فقد سمحت أعمال الترجمة الضخمة للتراث اليونانى فى مدارس بغداد والقاهرة وقرطبة وصقلية بالحفاظ على أساس العبقرية اليونانية، وهذه الترجمات العربية نفسها أصبحت بفضل ترجمتها إلى اللاتينية نقاط وصل بين العصور القديمة وعصر النهضة [٣].

وأسهم العمل الذى قام به العلماء العرب ولا سيما فى مجال الطب والرياضيات والكيمياء بصورة لا يمكن إنكارها فى النهضة الأوروبية.

وخلال الفترة الزمنية القصيرة التى استغرقتها الحضارة العربية والتى بلغت حوالى قرنين، وبينما أفسحت القوة العسكرية الكاسحة للمسلمين الأوائل المكان للثقافة، جهز الغرب رده إذ سمحت الحروب الصليبية للغربيين باكتشاف وجه مصر الجديد، مصر الفرعونية موطن يوسف وموسى.

ونشأت استراتيجية عسكرية جديدة فى بلاط ملك الفرنجة بالقدس جان دى بريان [٤]. تتلخص فى المقولة التالية: "مفاتيح القدس توجد فى القاهرة" وذلك على أثر سلسلة منهكة من الإخفاقات والنجاحات فى مواجهة أبناء صلاح الدين الذين كانوا يحتفظون بالقدس بعناية قصوى تحت سيطرتهم، وكان يتعين فى البداية تطبيق سياسة لحماية أراضيهم المكونة من شريط ساحلى ضيق متاخم للمملكة اللاتينية بسوريا.

"ومستفيداً من تجربته اقتنع جان دى بريان سريعاً بعدم جدوى الحملات الجديدة فى الخليل و "اليهودية"، وكانت القدس بصفة خاصة تقع فى موقع جد بعيد داخل مرتفعات "اليهودية" حتى ليصعب على جيش قادم من الساحل حصارها، وقرر جان بعد الاستعانة بخطط ريتشارد قلب الأسد الاستفادة من تفوق الفرنجة البحرى لغزو أحد موانئ الدلتا الكبيرة مثل الإسكندرية أو دمياط، وكان مقتنعاً لأسباب قيمة بأن مثل هذا الغزو سيشكل فيما بعد أكبر ضمان لاستعادة الأراضى المقدسة" [٥].

وهكذا أبحر أسطول الفرنجة فى ٢٧ مايو ١٢١٨ ووصل أمام ميناء دمياط بعد يومين، وبعد معارك ضارية استولى الفرنجة للمرة الأولى فى التاريخ على ميناء دمياط، وهذه المرة الأولى لن تكون كما سنرى المرة الأخيرة، وللوصول إلى القاهرة كان يتعين نزول النيل فى ضفته الشرقية، ولم تكن الغزوة سهلة بالنسبة للفرنجة لأن ملك مصر الملك الكامل ابن الملك العادل آخر سلاطين الأيوبيين فى الإمبراطورية المصرية السورية كان قد قطع طريق النهر بسلاسل ضخمة. ونظراً لاستحالة الوصول إلى القاهرة اضطر جان دى بريان التحصن فى دمياط، وكان الاستيلاء على دمياط قد أثر على الملك العادل تأثيراً بالغًا، فقبل وفاته فى سوريا أوصى ابنه بعقد صفقة جريئة مع جان دى بريان يتم بمقتضاها إعادة القدس للفرنجة مقابل الجلاء عن دمياط.

ولم يول المؤرخون – سواء الغربيون أو الشرقيون – هذا المشروع الأهمية السياسية أو الرمزية التى تليق به، وإذا كانت الفكرة نفسها لم تتحقق بسبب تعنت الكردينال بيلاج (٦) Pélage، أسقف ألبانيا إلا أن نتائجها كانت كبيرة.

فبعد معارك عدة ورحلة استكشافية فى يوليو ١٢٢١ قام بها النائب البابوى بيلاج، انتهى الفرنجة إلى ترك دمياط دون القدرة على بلوغ القاهرة أو استعادة القدس، وقدم هذا الفشل دروساً سياسية مثيرة عسكرية بل وثقافية للغرب.

يالها من حرب صليبية غريبة تلك التى لجأت للبحث عن مفاتيح القدس فى القاهرة! إن المؤرخين الذين لم يهتموا باقتراح السلام المصرى قدروا بطريقة سليمة قيمة الأحداث التى ارتبطت بالعمليات العسكرية، ومنها تلك القصة المؤثرة الخاصة بفرنسوا داسيز François d'Assise الذى طلب الأذن من النائب البابوى بيلاج للتوجه إلى معسكر الملك الكامل "لمحاولة" إدخاله فى الدين المسيحى، وبعد تردد وافق النائب البابوى وفى طريقه بصحبة أحد إخوانه بالقرب من معسكر ملك مصر ألقى الحرس القبض على داسيز وقادوه أمام خيمة الملك الكامل، وكان الملك قد تلقى لتوه رفض الفرنجة اقتراحه بإقامة سلام ولذا استقبل الراهب الذى ينوى إدخاله فى المسيحية بكل ترحاب وكرم ثم صرفه محملاً بالهدايا.

وبالرغم من موقف الأسر الذى كان فيه ملك الفرنجة كضمان لانسحاب جيوشه، يشير المؤرخون إلى المجاملات الرائعة التى كانت تتسم بها العلاقات بين الكامل وجان دى بريان خلال المناقشات الأخيرة المتعلقة بجلاء الفرنجة؛ ففى خلال تلك الفترة أغدق الحاكمان على بعضهما فى تقديم الهدايا، ويتحدث رينيه جروسيه René Grousset فى كتابه العظيم "تاريخ الحروب الصليبية" عن التصرف الذى يتسم بالمجاملة من جانب المسلمين مضفيًا عليه بعدًا سياسيًا (٧).

وفى الوقت الذى احتجز فيه جان دى بريان "بلطف" كأسير فى معسكر الملك الكامل، أرسل هذا الأخير ابنه الصالح أيوب إلى دمياط ليكون أسيرًا لدى النائب البابوى بيلاج لبث الطمأنينة فى نفس الفرنجة فيما يتعلق بأمن ملكهم.

والصالح أيوب هو نفسه الذى عاصر بعد ذلك بثمانية وعشرين عامًا وصول جيش صليبى جديد يقوده هذه المرة ملك فرنسا شخصيًا الملك لويس التاسع الذى أصبح فيما بعد القديس لويس.

وفى الوقت ذاته أدى الإسلام فى مصر – فى خضم الحرب الصليبية – دورًا سلميًا مدهشًا مع وريث الإمبراطورية المسيحية فردريك الثانى دى هوهنستوفن Frédéric II de Hohenstaufen، إذ أبرم ملك مصر الملك الكامل معاهدة سلام لمدة ثمانية أعوام (١٢٢١ – ١٢٢٩) مع جان دى بريان، وعاد هذا الأخير إلى أوربا فى أكتوبر ١٢٢٢ لطلب المساعدة من البابا هونوريوس الثالث Honorius III والإمبراطور فردريك الثانى دى هوهنستوفن.

وكان فردريك الثانى دى هوهنستوفن يعانى منذ سنوات من ضغوط كبيرة للبابا لحمل الصليب وإنقاذ الأراضى المقدسة، وقد أثار فشل الحرب الصليبية الخامسة غضب هونوريوس الثالث ، ولاستعجال الحملة الصليبية الألمانية اقترح ... ثم حصل فى أغسطس ١٢٢٥ على موافقة بشأن زواج فردريك الثانى وإيزابيل أميرة القدس ابنة جان دى بريان.

وبالإضافة إلى محبة الملك فردريك للإسلام، ارتبط الإمبراطور بالفعل بصداقة فكرية مع الملك الكامل.

وعلاقات الملك التى تتسم بمحبة الإسلام لا تزال تثير دهشة الكثير من المؤرخين حتى يومنا هذا، فهم يرون فيه نتاج تأثير الفلسفة الإسلامية التى كانت قد بلغت أوجها ولاسيما فى صقلية مسقط رأسه حيث نشأ وكبر، وتبادل الكامل وفردريك الثانى مرارًا وفودًا رسمية فريدة، فالأمير فخر الدين ابن الشيخ أمير مصر ذو البشرة الملونة والفارس الحقيقى الذى كان يملك فطنة الدبلوماسى والميزات الفكرية مثل الملك الكامل فى سبتمبر ١٢٢٦ وأكتوبر ١٢٢٧ فى بلاط الحاكم الذى كان يجب أن يحمل الصليب ضد الإسلام باسم المسيحية كلها.

وينقل المؤرخ المصرى المقريزى شهادات مدهشة عن الود أو بالأحرى الصداقة التى ربطت بين الأمير فخر الدين والإمبراطور فرديريك الثانى إلى الحد الذى بلغ بالأمير المصرى إلى حمل أسلحة الإمبراطور على رايته.

وعاد ظهور هذا الأمير المصرى على الساحة السياسية الفرنسية - المصرية بوصول لويس التاسع إلى دمياط، وقبل ذلك كان المحرك الأساسى للصداقة التى كانت تربط فى خضم الحرب الصليبية بين مصر الإسلامية والإمبراطورية المسيحية الغربية.

ومن جانبه أرسل فردريك الثانى للقاهرة سفيرين هما الكونت توماس داسيره Thomas d'Acerra والأسقف بيرار دى باليرم Bérard de Palerme، ويروى لنا المؤرخان العربيان المقريزى فى "خطط القاهرة" وابن الأثير فى "عقد اللؤلؤة" الاستقبال الكريم الذى حظى به السفيران فى بلاط القاهرة والاستقبال العدائى الذى لقياه فى دمشق. ولكن ما السبب؟

فى بداية خريف ١٢٢٧ تحول خلاف عائلى إلى صراع سياسى بين ثلاثة من أبناء العادل وأبناء شقيق صلاح الدين وهم الملك الكامل ملك مصر من ناحية والملك المعظم ملك دمشق والملك الأشرف ملك الجزيرة من ناحية أخرى.

وكان للوفد المصرى الألمانى أثره فى إقناع الملك المعظم ملك دمشق بطلب مساعدة البرابرة الذين يطلق عليهم جماعات الخوارزم وهم من نسل المغول والذين كانوا يمثلون بالرغم من اعتناقهم الإسلام خطراً مزدوجًا على المسيحية والإسلام على حد سواء، كان ذلك هو السياق الذى اتسم فيه استقبال الأسقف جيرار دى باليرم ببعض العداء.

وعلى خلفية الحروب الصليبية والضغط البابوى والصراعات بين نسل صلاح الدين وقعت مصر الإسلامية معاهدة سلام مع فرديريك الثانى الذى تقدم أسطوله إلى عكا فى ٧ سبتمبر ١٢٢٨

وتحولت الحرب الصليبية الألمانية إلى بعثة دبلوماسية حتى بعد موت المعظم أمير دمشق فى ١٢ نوفمبر ١٢٢٧، وأكثر من ذلك شكلت هذه الحرب فرصة غير عادية للتبادل بين الحضارتين وذلك فى خضم فترة الحرب المقدسة ! وهكذا وقع ممثلا الإمبراطور توماس داسيرا Thomas d'Acerra وباليان دى سيدون Balion de Sidon معاهدة سلام يافا فى ١١ فبراير ١٢٢٩ مع ممثلى ملك مصر الأمير فخر الدين وصلاح الدين الأرحيلى فى وجود السيد التوتونى العظيم هرمان فون سالزا Hermann Von Salza وبعض الأساقفة الإنجليز. وهكذا عادت القدس للمسيحية ... وعرضت هذه المعاهدة مصر لغضب مسلمى العالم بأسره، ولم يسلم أيضًا فرديريك الثانى الذى نجح فى استرداد القدس دون حرب، فسريعًا ما عزله البابا الجديد جرجوار التاسع فى ١٧ مارس ١٢٢٩، ثم جاء الحدث الخطير بدخول وريث الإمبراطورية المسيحية الغربية رسميًا فى المدينة المقدسة وتسلم مفتاحها من المفتى الكبير لمدينة القدس والممثل الشخصى للملك الكامل عاهل مصر.

وبعد هذه المفاجأة عاد الإمبراطور إلى إيطاليا فى ١٠ يونيه ١٢٢٩، وكانت باريس تفكر بالفعل فى حملتها الصليبية الثانية على مصر.

وتوفى السلطان الكامل عاهل مصر وهو فى الستين من عمره فى ٨ مارس ١٢٣٨ بعد مرور تسع سنوات على معاهدة يافا التى تم بمقتضاها عودة القدس إلى الفرنجة، ومع ذلك يولى المؤرخان العربيان أبو الفضل والمقريزى للسلطان الكامل

الاهتمام الأكبر من بين ملوك الإسلام، أما المؤرخون الغربيون - ولاسيما رينيه جروسيه مؤرخ الحروب الصليبية العظيم [٧] - فيجمعون على الدور السلمى الذى قام به بين الديانتين [٨].

وغداة وفاة الكامل، تم تنصيب ابنه العادل الثانى ملكًا، ولكنه ما لبث أن أغضب أمراءه بسبب علاقة جنسية أقامها مع عبد أسود، وفى ليلة ٣١ مايو ١٢٤٠ حاصر الأمراء خيمة الملك وألقوا القبض عليه واستقدموا أخاه الصالح أيوب من سوريا ودخل مصر بطريقة رسمية فى عام ١٢٤٠ .

إنه العاهل الشاب الملك الصالح أيوب الذى تم إرساله فى دمياط التى كان يحتلها آنذاك الصليبيون خلال أسر جان دى بريان فى القاهرة، وخلال فترة حكمه القصيرة (١٢٤٠ - ١٢٤٩) شهد ملك مصر الجديد سليل أسرة صلاح الدين نهاية الأسرة وبصورة غريبة نهاية وجود الفرنجة فى الأراضى الإسلامية.

وكانت معاهدة السلام التى وقعها والده الكامل مع فردريك الثانى قد انتهت مدتها فى يوليو ١٢٣٩، بينما كان الصالح يجدد علاقات الصداقة مع الإمبراطور الألمانى صديق والده - وذلك بفضل السمات الدبلوماسية والفكرية للأمير فخر الدين - جهز على عجالة البابا جرجوار التاسع العدو اللدود للإمبراطور حملة صليبية صغيرة أطلق عليها "حروب تيبو دى شامبانين الصليبية "Thibaut de Champagne" لمنع أى عملية محتملة لاسترداد المسلمين للمدينة المقدسة، ونزلت الحملة الصليبية السادسة فى غزة فى السنة نفسها (١٢٣٩)، وسريعًا ما تحولت إلى كارثة وكانت النتيجة الرئيسية لها سيطرة المسلمين مرة أخرى على المدينة، وكان على الغرب المسيحى كله أن يتجه صوب القاهرة لاستعادة مفاتيح المدينة المقدسة.

وفى ديسمبر ١٢٤٤ أعرب ملك فرنسا لويس التاسع الذى كان يعانى من مرض عضال عن رغبته فى القيام بحرب صليبية، وذلك ردًا على النداء الذى وجهه بطريرك القدس الذى أخطر أمراء الغرب بالضرورة القصوى لشن حرب صليبية جديدة وإلا قضى على الدول المسيحية فى الشرق، وعلى الفور أبلغ مبعوثو الإمبراطور فردريك الثانى دى هوهنستوفن بلاط القاهرة بخطط ملك فرنسا.

وعندما أبحر الملك لويس التاسع من أيج مورت Aigues-Mortes فى ٢٥ أغسطس ١٢٤٨ ظهر للمصريين الطابع القومى لا الأوروبى الجديد لهذه الحملة الصليبية السابعة، ويفسر هذا الطابع أيضًا التزام أمراء المملكة جميعًا وفى المقام الأول إخوان الملك الثلاثة [٩].

وفى مواجهة هذه الحرب الصليبية الكبيرة وهذا الملك الفرنسى العظيم يرسم لنا رينيه جروسيه صورة غريبة لشخصية سلطان مصر الصالح أيوب.

"ويتعين القول لإبراء الصليبيين الذين شنوا حملة ١٢٤٩ أن السلطان الأيوبى الحاكم سيد مصر ودمشق الصالح أيوب كان خلاسيًا من أم جارية سودانية، ولم يكن يشبه فى شىء أسلافه العظام مثل عمه الكبير صلاح الدين وجده العادل ووالده الكامل، فلم يكن يملك انفتاح قلب الأول أو حب اطلاع الثانى أو ثقافة الأخير ومرونته الدبلوماسية. ولا يخفى علينا على الإطلاق المؤرخون العرب ضيقهم إزاء نصف الزنجى ذاك الذى يتسم بالتعالى والكتمان والقسوة والحزن، ذلك الوريث غير المتوقع لسلاطين الكرد النابهين والذى يشبه بصورة أكبر بعض الطغاة السودانيين" [١٠].

ويقول لنا عنه المؤرخ العربى المقريزى: لم يكن عنده أى ميل للعلم ولم يكن يحب القراءة، وكان جشعًا لدرجة أنه قتل عددًا من أمراء مملكته واستولى على ثرواتهم وأموالهم، وقتل حتى أخاه العادل [١١].

وكان كل شىء يضع لويس التاسع فى مواجهة الصالح أيوب ومع ذلك حافظ سلطان مصر حتى آخر أيامه على صداقة قوية مع فردريك الثانى وكرس طاقته لإقامة التحف المعمارية فى مملكته التى تمتد من القاهرة وحتى دمشق [١٢]، وأحاط نفسه

بحرس مقربين من المماليك ذوى الخبرة العسكرية العالية ومنهم بيبرس الذى أصبح فيما بعد صلاح الدين الجديد.

وفي ذلك الوقت كان لويس التاسع يستعد للنزول فى ميناء دمياط، ولم يكن يعرف أن قائد الجيوش المصرية الذى ينتظره على الشاطئ هو الأمير فخر الدين بن الشيخ الذى كان لا يزال يحمل على لوائه أسلحة صديقه الإمبراطور فريدريك الثانى.

وشهادة جوانفيل Joinville الغربية تعطينا بعض المعلومات الهامة عن أحداث هذه الحملة الصليبية ولاسيما عن البيئة الثقافية والدينية التى كانت تحيط بالمعسكر المسيحى.

بداية كان جوانفيل على يقين تام بأن استيلاء الصليبين السريع على دمياط والذى تبعه دخول ملك فرنسا المدينة فى ٦ يونيه ١٢٤٩ يرجع أساساً إلى الإعلان عن وفاة سلطان مصر الصالح أيوب.

> **أعلن العرب المسلمون ثلاث مرات للسلطان عن طريق الحمام الزاجل أن الملك قد نزل إلى الشاطئ دون أن يتلقوا رداً على الإطلاق وذلك لأن السلطان كان مريضاً، وعندما رأوا ذلك اعتقدوا أن السلطان قد لقى حتفه وغادروا دمياط (١٣).**

ثم بعد ذلك - وهذا ما كان يجهله جوانفيل - كان سلطان مصر لا يزال على قيد الحياة، وكان الأمير فخر الدين قد عاد إلى القاهرة سراً وقد استدعته زوجة السلطان الطموحة والنشيطة شجرة الدر وذلك للسيطرة على الموقف.

وكان أول عمل قام به المنتصر الصليبى هو تحويل مسجد دمياط الكبير إلى كاتدرائية وهكذا أقر البطريرك روبار رسمياً كاتدرائية سيدة دمياط.

ولم يمنع الطابع الرمزى لهذا الحدث الصليبيين من مناقشة ما يتعين عمله استكمالاً لهذه الأحداث بعد هذا الانتصار السريع؛ يتعين اتخاذ قرار استراتيجى بالتوجه نحو الإسكندرية أو السير نحو القاهرة؟ (١٤) وكان الكونت دارتواه d'Artois شقيق الملك من أنصار الخيار الثانى.

ويروى جوانفيل: "عندما وصل الكونت دى بواتييه استدعى الملك كل البارونات للتوصل إلى الطريق الذى يتعين سلكه؛ صوب الإسكندرية أو صوب القاهرة [١٥]، وحدث أن اتفق الكونت بييردى بريتانى Pierre de Bretagne وغالبية البارونات على قيام الملك بحصار الإسكندرية لأن أمام المدينة ميناء كبيرًا ترسو فيه السفن التى تمد الجيش بالمؤنة ، وعارض الكونت دارتواه d'Artois هذا الرأى وقال إنه لا يرى إلا الذهاب للقاهرة لأنها المركز الرئيسى لكل مملكة مصر، وقال إن من أراد أن يقتل الأفعى فعليه أولاً أن يحطم رأسها" [١٦].

واختتم جوانفيل الفصل الذى كرسه لمجلس الحرب الفرنسى المنعقد فى دمياط بهذه الملحوظة التى لا تخفى خيبة أمله إزاء خيار الملك: "ولم يعن الملك بوصايا البارونات الأخرى كلها وتمسك بوصية أخيه" [١٧].

وفى القاهرة خلال هذا الوقت كان هناك شخصان يعرفان بقرب أجل السلطان الصالح أيوب وهما زوجته شجرة الدر والأمير فخر الدين، وقد تم نقل السلطان على نقالة حتى المنصورة، فقد أراد سليل صلاح الدين - حتى وهو يحتضر - أن ينتظر الجيش الفرنسى ويقطع عليه طريق القاهرة.

وتوفى الصالح أيوب فى ٢٣ نوفمبر ١٢٤٩ بعد ثلاثة أيام من بداية مسيرة جيش الفرنجة صوب القاهرة، ويرسم لنا المؤرخ الفرنسى رينيه جروسيه صورة للموقف العسكرى والسياسى فى القاهرة غداة وفاة السلطان وعشية مواجهة فاصلة مع المسيحية:

> **وضعت شجرة الدر فى أولوياتها المخصى جمال الدين محسن الذى كان يمثل القصر والأمير فخر الدين بن الشيخ الذى كان يقود الجيش المعسكر فى المنصورة، واستدعت - بالاتفاق معهما - الأمراء باسم السلطان الصالح أيوب المفترض أنه كان لا يزال مريضًا وعينت توران شاه [١٨] وريثًا للعرش وفخر الدين قائدًا عامًا، وكان هذا الأخير خصيًا يجيد محاكاة توقيع السلطان**

المتوفى، وحرر الأوامر العليا اللازمة، وهكذا تم تأمين استمرارية السلطة وتم إيفاد المراسيل إلى ديار بكر لاستدعاء توران شاه فى أسرع وقت ممكن. وإزاء هذا الموقف المضطرب قرر القائد العام فخر الدين فتح الطريق لنفسه للوصول إلى السلطة بصورة نهائية (١٩).

وأخيراً انتشر خبر وفاة السلطان مما أحبط معنويات المصريين وعضد قوة الصليبيين.

وبدون الاعتماد على شجاعة فخر الدين، انزلق جيش الفرنجة فى الشبكة غير المتناهية من القنوات والفخاخ ومستنقعات النيل .. وعلى الرغم من هجوم رجال فخر الدين على الصليبيين ومواجهتهم لصعوبات جمة على النهر استطاعوا عبور البحر الصغير (٢٠) – وهو فرع النيل المؤدى إلى المنصورة – وفاجأوا المصريين ليلاً وقتلوا الأمير فخر الدين فى ٨ فبراير ١٢٥٩، وقاد الكونت دارتواه تلك العملية وأسرع بعد ذلك نحو مدينة المنصورة حيث لقى حتفه ومعه غالبية جيش الفرنجة، أما بالنسبة للملك لويس التاسع فقد تم أسره بدار ابن لقمان.

وفى ساعات قليلة أسرع التاريخ فى خطاه، وطويت صفحة من التاريخ المشترك للإسلام والغرب تتسم بصفة خاصة بالفروسية والإنسانية، وفتح الأسر غير المتخيل لمن أصبح فيما بعد القديس لويس ، ثم فى الوقت ذاته تقريباً استيلاء القائد العام المصرى الأمير بيبرس على السلطة الذى يعد صفحة جديدة فى التاريخ .. ويقول رينيه جروسيه عن الأمير بيبرس إنه كان "واحداً من أفضل المحاربين على الإطلاق"، لقد كان بالفعل النقيض التام لفخر الدين بمعنى أنه كان يجمع صورة رائعة بين العبقرية العسكرية والكفاءة الإدارية، وبزغ نجمه بمقتل فخر الدين وأسر القديس لويس، وبعد عشر سنوات كان بيبرس هو الذى أنقذ مصر بل العالم بأسره من انتشار جماعات المغول كما أنهى وجود الدول اللاتينية المسيحية فى الأراضى الإسلامية.

وكان من نتائج الحملة الصليبية السابعة دخول مصر الإسلامية بصورة مؤثرة فى التاريخ السياسى والثقافى لفرنسا، وانتقلت هذه الحركة الفرنسية الغربية التى شحذها

الحماس الدينى على الجبهة الأخرى فى أقصى المغرب لتستولى مرة أخرى على شبه جزيرة أيبيريا وفى الوقت ذاته لتكتشف وجه الإسلام الجديد، الوجه الحضارى ذا الثقافة الرفيعة، وقد أضفت روح الأمير فخر الدين نوعًا من البهاء على فترة ما بعد الحروب الصليبية تلك .. وغداة وفاته جرى حدث للويس التاسع ملىء بالتعاليم؛ فقد أسر المماليك[٢٠] هذا الأخير وهم الذين كانوا قد قتلوا لتوهم الملك توران شاه ابن الملك الصالح أيوب وخليفته وعرض بعض الأمراء المصريين على الملك الأسير عرش مصر.

ويروى لنا جوانفيل هذا الحدث المذهل:

"بمجرد قتل توران شاه، تم نقل أدواته أمام خيمة الملك، وقيل له إن الأمراء قد تداولوا طويلاً حول جعله سلطانًا لمصر، وسألنى إذا كان من الممكن أن أصدق إمكانية أخذه لملكة مصر فى حالة عرضهم عليه ذلك، وأجبته أنه لو فعل لكان ذلك دربًا من دروب الجنون لأنهم قتلوا ملكهم؛ وقال لى الحق أنه ما كان ليرفض العرض، وأن ذلك لا يرجع لشىء سوى قولهم إن الملك كان أكثر الشخصيات المسيحية حزمًا وأعطوا المثال على ذلك بأن عند خروجه من خيمته كان يأخذ صليبه فى يده وهو يجلس على الأرض مشيرًا إلى كل أجزاء جسده" (٢١).

ومع ذلك فمنذ عودة لويس التاسع وجوانفيل إلى فرنسا شن الغرب حربه الصليبية الثقافية الخاصة بعد قرنين من الحرب الدينية ضد الإسلام، وتمثلت الحركة الأولى فى إنشاء سلسلة من كراسى اللغة العربية والسامية فى باريس وأكسفورد وبولونيا ومدن أخرى من الغرب المسيحى، وكان مجمع فيينا الدينى هو الذى اتخذ القرار فى ١٣١٢ أى بعد واحد وعشرين عامًا فقط من استيلاء خلفاء السلطان بيبرس - السلطان قلاوون وابنه الأشرف - على عكا آخر معاقل الدول اللاتينية فى الشرق.

واعتبارًا من النصف الثانى من القرن الثالث عشر تغيرت معرفة الغرب بالإسلام تغيرًا جذريًا، فقد تحولت الأيديولوجية المناهضة للإسلام إلى روح من المنافسة

السياسية والاقتصادية الناتجة عن الاتصال المباشر بين الصليبيين والمسلمين، ونشأت هذه الحالة الفكرية أولاً لدى الحكام الغربيين والمحيطين بهم قبل أن تصل بعد ذلك إلى الشعوب.

وانتقل هذا التغيير الشديد الأهمية عشية عصر النهضة الأوروبية عن طريق كتابات الرحالة الصليبيين والمؤرخين المسيحيين من جييوم دى تير Guillaume de Tyr وحتى جوانفيل، فالغرب الذى نشر صورة قاتمة عن الإسلام لأغراض دعائية سيحاول فهم دعائم هذه الحضارة.

وقد وجه الاهتمام بداية بحياة الرسول محمد، وحاول الغرب رؤيته بطريقة مختلفة أى فى صورة أكثر إنسانية وأقل شيطانية، كما تم النقل دون حدود عن الفلسفة الإسلامية:

"ففى مجال يقع هو نفسه على محيط تيارات عدة، اكتشف اللاتينيون أيضًا صورة أخرى للإسلام مناقضة تمامًا للصورة التى رسموها فى الإطار الدينى" [٢٢].

وإذ استشعر روجر بيكون (١٢١٤ - ١٢٩٢) رغبة فى إتقان معلوماته عن أرسطو شرع فى عمل ضخم عن الإرث اليونانى الذى حفظه الفلاسفة المسلمون.

"وبعد ذلك جدد أرسطو بصفة أساسية الفلسفة باللغة اليونانية ثم ابن سينا باللغة العربية" [٢٣].

وسريعًا ما انتشرت فلسفة ابن سينا ثم فلسفة ابن رشد فى الجامعات الغربية بالرغم من مصاحبتها اضطرابات فكرية خطيرة ولاسيما بجامعة السربون.

ثم جاءت بعد ذلك الترجمات العلمية، وكلنا يعلم مدى استفادة الطب الغربى من الإرث الإسلامى.

وهكذا نشأ فى الغرب تيار جديد أطلق عليه رودينسون Rodinson "التفاهم" يدعو إلى استبدال العمل الحربى [٢٤] بجهد المبشرين القائم على الدراسة المتعمقة للمذهب والتعلم المنهجى للغة العربية.

وفى الوقت ذاته أكدت انطلاقة التجارة فى البحر المتوسط غداة الحروب الصليبية أهمية أو بالأحرى ضرورة إقامة علاقات حسن جوار مع المسلمين فى موانئ الإسكندرية وبيروت ويافا وفى المغرب بأسره، وبعد الفلسفة بدأ الغرب فى استيراد الأقمشة والبهارات من العرب.

وأصبح الإسلام هو دين "شركاء" موانئ البحر المتوسط، هذا الدين الذى يؤثر ثقافيًا واقتصاديًا على الحياة اليومية للأوروبى المسيحى، فقد أصبح هذا الأخير يفهم الرياضيات بفضل الأرقام العربية، ويشرب قهوته "فى فنجانه" بإضافة "السكر" Sucre، قبل الذهاب للسوق "Souk" لشراء الكمون والزعفران "Cumin et Safran" اللازمين للطهى ويدفع بالصك – هذه الورقة العربية التى ما لبثت وتحولت إلى "شيك" – وتعكس هذه الكلمات أبعاد هذه الحرب الصليبية الثقافية الغربية.

وأرادت سخرية التاريخ أن تظهر الإمبراطورية العثمانية فى الأفق وهى التى شكلت خطرًا نشأ من الإسلام فى الوقت الذى بدأت أوربا عصر نهضتها وقد زودت بإرث إسلامى ضخم.

وقد حاصر العثمانيون فى ١٥٢٩ مدينة فيينا التى تقع على حدود العالمين والحضارتين، ومع ذلك فقبل تهديد عاصمة المسيحية الكبيرة تلك تأكد العثمانيون من وضع يدهم على القاهرة بعد دخول سليم المدينة منتصرًا عام ١٥١٧ .

ومنذ ذلك الحين بدأت جدلية بين القاهرة واسطنبول على خلفية علاقات سياسية ثقافية مع الغرب، فأسرع الباب العالى للتوقيع فى ١٥٣٥ على معاهدة يطلق عليها "الامتيازات الأجنبية" مع فرنسا فى ظل حكم فرانسوا الأول.

وبعد خضوع القاهرة للحكم العثمانى أصبحت المدينة المركز البعيد للسلطة فى هذه الإمبراطورية الإسلامية الجديدة، ومع تدمير المغول لبغداد عام ١٢٥٨ وتصميم المماليك على تخليص الإسلام من خطر المغول والصليبيين على حد سواء أصبحت القاهرة القلب النابض للإسلام، وفهم العثمانيون المنتصرون عام ١٥١٦ فى مرج دابق

وفى سوريا ضرورة الحفاظ على العاصمة المصرية فى قلب السلطة الفكرية لإمبراطوريتهم، وبالفعل دعيت عاصمة المماليك لتحل محل اسطنبول لخضوع هذه الأخيرة لضغوط الروس الأرثوذكس فى الشرق والقوى الكاثوليكية فى الغرب، وكان الفيلسوف ليبنتز أول من أثار هذه النقطة فى المذكرة المذهلة لغزو مصر التى قدمها للويس الرابع عشر عام ١٦٧٢ .

أما بالنسبة لإسطنبول التى تقع فى قلب أوربا والمحاصرة بمسيحية الغرب - الذى سريعًا ما سيدق طبول انتصاره الصناعى - فقد تم الحفاظ على الأسس السنية لإسلام متشدد ولم يتم التطور فى هذه العاصمة إلا بالكاد.

ولفهم معادلة "الغرب / الإسلام / مصر" فى كل تعقيدها يتعين علينا دراسة هذا المشروع المصرى "مذكرة غزو مصر" كما كان يطلق عليها ليبنتز، وهذا المشروع الكبير لسياسات ذلك الوقت ولبعض الرحالة والحالمين الفرنسيين الذين هاموا على وجوههم فى بلاط فرساى وفى أزقة القاهرة.

الهوامش

(1) Arnold Toynbee, l'Histoire, Paris Bruxelles, Elsevier Séquoia, 1978, p. 553.

(2) Bernard Lewis, Comment l'islam a découvert l'Europe, Paris, Gallimard 1994, p. 12.

(٣) نشرت خلال الخمسين عامًا الماضية أعمال كثيرة عن إضافات العرب للحضارة الغربية ونرى أن أكملها هو كتاب:

Sigride Huncke: Le soleil d'Allah brille sur l'Occident, Paris, Albin Michel, coll " espaces libres ", 1963.

(٤) اختار فيليب أغسطس جان دى بريان ليتزوج ملكة القدس الملكة مارى، وقد وصل إلى عكا فى سبتمبر ١٢١٠، وفى ٣ أكتوبر تم تتويجه ملكًا للقدس فى كاتدرائية صور فى وجود كل بارونات سوريا الفرنجية.

(5) René Grousset, Histoire des Croisades et du Royaume franc de Jérusalem, Paris, Perrin, 1991, t. 111, p. 207 - 208.

(٦) نائب بابوى متعصب طالب فى سبتمبر ١٢١٨ بقيادة الحرب الصليبية ضد مصر بالاشتراك مع جان دى بريان.

(7) René Grousset, op. Cit., p. 242 - 243.

(8) René Grousset, op. Cit., p. 370.

"كان ابن أخ صلاح الدين يملك روح التسامح، وكان أكثر تسامحًا من فردريك الثانى الذى استطاع أن يضع معه أسس أسلوب تعايش قبله الفرنجة والمسلمون على حد سواء، ودون أن يملك ميزات عمه صلاح الدين ووالده العادل كان ندًا لهم بالجدية التى كان يمارس بها وظيفته كملك، وعلى أى حال فهو يستحق مكانة خاصة فى التاريخ لسعة الأفق التى عمل بها ليقيم على أرض الحروب الصليبية والجهاد نفسها سلامًا دينيًا استشعر الإسلام والمسيحية فائدته، وقد شرع فى ذلك دون إيديولوجية أو يوتوبيا وحتى دون اللامبالاة التى اتسم بها فريدريك الثانى".

(٩) يتعين الإشارة إلى أنه بجانب إخوان الملك الثلاثة روبير دارتواه Robert d'Artois وألفونس دى بواتييه Alphonse de Poitiers وشارل دانجو Charles d'Anjou اشترك فى هذه الحرب الصليبية الفرنسية بارونات كبار مثل دوق بوربونى هوج الرابع Hugues IV وكونت فلندرا جييوم دى دامبيير Guillaume de Dampierre.

(10) René Grousset, op. Cit., p. 433.

(11) Al-Maqrizi, Histoire d'Egypte, trad. Blochet, Paris, R.O.L., p. 209.

(١٢) هناك شارع جميل لا يزال يحمل اسمه فى حى الزمالك بالقاهرة.

(13) Joinville, Histoire de Saint Louis, texte rapproché du français moderne de 1865 par Natalis de Wailly, Paris, Librairie L. Hachette, 1865.

(١٤) أخذ المؤرخون على لويس التاسع هذا الجمود الذى سمح للمصريين باستعادة أنفسهم، ولكن ملك فرنسا كان ينتظر بالفعل وصول إمدادات أخيه الفونس دى بواتييه، وكان المفروض اعتباراً من يونيه أن يجمد أعماله حتى نهاية فيضان النيل فى شهر أكتوبر.

(١٥) القاهرة: بابل.

(16) Joinville, op. Cit., p. 81 - 82.

(17) Ibid.

(١٨) ابن الملك المتوفى.

(19) René Grousset, op. Cit., p. 450.

(٢٠) بمساعدة مرشد من السكان الأصليين.

(٢١) المماليك هم عبيد اشتراهم الصالح أيوب من أسواق العبيد فى آسيا الوسطى بهدف تدريبهم على فنون الفروسية ومهارات الحرب، وأصبحوا بعد موت أميرهم ومقتل ابنه سادة مصر المطلقين وذلك حتى استيلاء العثمانيين عليها فى عام ١٥١٧، وقد شاركوا فى حكم البلاد باسم العثمانيين حتى وصول بونابرت للقاهرة فى يوليو ١٧٩٨ .

(٢٢) يرسم لنا ماكسيم رودينسون Maxime Rodinson فى "سحر الإسلام" Le Fascination de l'Islam الخطوط العريضة لهذه الصورة الجديدة.

(Paris, la Découverte, Presse - Pocket, 1993, p. 41 - 45).

(٢٣) المترجم الكبير جيرار دى كريمون Gérard de Crémone نحو عامى (١١١٤ - ١١٨٧) كان قد بدأ فى طليطلة مشروعه الترجمى الكبير الذى نفذه الغرب على موضوع الفلسفة الغربية.

(24) Cité par Maxime Rodinson, op. Cit., p. 46.

الجزء الأول

العلامات المنذرة

الفصل الأول

أشباح ليبنتز فى فرساى

"المؤكد أن مصر كانت السبب الذى أدى بالمسيحيين إلى فقد الأراضى المقدسة، كما كانت المنقذ للمحمديين الذين لولا امتلاكهم لها لاختفوا من على وجه الأرض".

ليبنتز - مذكرة غزو مصر

مقدمة للويس الرابع عشر

هل كانت هناك علاقة بين طباعة جوتنبرج لأول كتاب (التوراة) عام ١٤٥٠ واستيلاء الأتراك على القسطنطينية بعد ذلك التاريخ بثلاث سنوات.

لم ير العالم الإسلامى - المنتصر بالسيف والمدفع - فى هذين الحدثين وخلال السنوات الثلاث التى تفصل بينهما إلا العالم المسيحى الذى تميز بالطباعة والتجارة وهو يبدأ انطلاقة عصر نهضته، تلك النهضة التى حيكت بكثير من الصبر تحت سماء إيطاليا الدافئة قبل أن تنتشر كنثار بارود فى موانئ أوربا.

وفى هذه اللحظة تحديداً من التاريخ أبرزت فرنسا بطريقة جد معبرة مفهومها للإسلام، فقد وقع فرنسوا الأول مع سليمان العظيم عام ١٥٣٥ على معاهدة

"الامتيازات الأجنبية" التى تحدثنا عنها توًا .. وتكتسب هذه المعاهدة أهمية خاصة إذ تختم عصر الحروب الصليبية وتفتح عصر المركنتيلية (*) الذى أدى إلى بداية عصر التوسع الاستعمارى.

ولم يكن اكتشاف أمريكا بالفعل فى ١٤٩٢ سوى بداية لتذوق المغامرة التجارية والتوسعية التى جعلت من الإسلام - بصورة طبيعية وبعد ألفية من الردة الورائية - عدوًا أبديًا.

وكانت معاهدة "الامتيازات الأجنبية" قبل كل شىء عبارة عن سلسلة من المزايا الممنوحة من السلطان العثمانى للرعايا الفرنسيين الموجودين على الأراضى الشاسعة للإمبراطورية العثمانية ولاسيما حق التبعية لقنصليات بلادهم فى مدن وموانئ الإمبراطورية، وبعبارة أخرى لم يَعُد هؤلاء الرعايا يقعون تحت حماية البكوات والباشوات المحليين، وما لبث هذا الاستقلال القضائى والقانونى أن تحول إلى سلطة سياسية مخيفة.

وكانت فرنسا هى البلد الوحيد الذى أقام اعتبارًا من ١٥٣٥ علاقات تحالف مع الإسلام بينما كانت الإمبراطورية العثمانية لا تزال تثير رعب القوى المسيحية الأخرى، ومنذ إبرام معاهدة الامتيازات الأجنبية استعادت معادلة "الغرب / الإسلام /.مصر" أهميتها مرة أخرى، كما لو كانت فرنسا - فى رغبتها لنسيان ذكريات القديس لويس المؤلمة - قد أرادت إقامة تبادلات تجارية ضخمة مع مصر، ولما كان مفتاح القدس موجودًا منذ فترة قصيرة فى القاهرة، فقد أصبحت الإسكندرية وكالة تجارية أجنبية أنبأت عن العمليات التجارية الكبرى المستقبلية .. وبعد عصر الحُجاج بدأ عصر القناصل ومعهم مشروعات غزو جديدة، وسريعًا ما تم إنشاء الوكالات التجارية الفرنسية فى الإسكندرية ورشيد، والتفت تدريجيًا الجاليات الغربية صغيرة العدد حول

(*) نظام اقتصادى نشأ فى أوربا خلال تفسخ الاقطاعية لتعزيز ثروة الدولة بتنظيم الاقتصاد واعتبار المعادن الثمينة ثروة الدولة الأساسية . (المترجمة)

فرنسا فى البداية ثم فتحت القنصليات الخاصة بها بعد ذلك، وتمثل الدور الرئيسى لهذه القنصليات فى حماية رعاياها والحفاظ على تجارتهم، وكان من البدهى أن يتوافر فى العاملين بها صفات التجار قبل خضوعهم للقواعد والتقاليد الدبلوماسية التى تحدهم فى دور القناصل.

إن الحوليات التى ترسم خطوط هذه الفترة تكشف لنا عن قنصل غير عادى فى هذه الفترة البعيدة حيث كان تمتع أى فرد بقدر من الإنسانية يشبه الجنون؛ إنه القنصل دى ريير De Ryer .

ولد أندريه دى ريير (١٥٨٠-١٦٦٠) فى مدينة بورجونى Bourgogne وكان مولعًا بالشرق والإسلام، وقد شعر بسعادة كبيرة عند تعيينه قنصلاً لبلاده فى مصر حيث رسم - بطريقة لا شعورية - ملامح مستقبل هذا المثلث: "الإسلام / مصر / الغرب".

كانت مصر، فى تلك الفترة، فى بداية الحكم العثمانى وكانت جيوش سليم قد احتلتها عام ١٥١٧ فذابت مصر وتلاشت داخل كتلة الإمبراطورية العثمانية، وظلت على هذا الحال حتى وصول جيوش بونابرت عام ١٧٩٨ .

وفى الفترة التى فصلت بين التاريخين حيك النسيج المعقد الذى سمح بالصراع الثقافى الأول بين الإسلام والغرب، ولعب دى ريير - الذى مُحى اليوم من ذاكرتنا - فيه دورًا أساسيًا.

وقد وصل دى ريير إلى مصر فى مطلع القرن السابع عشر وكان تعيينه أحد القرارات الأولى التى تم اتخاذها بعد معاهدة الامتيازات الأجنبية.

وسريعًا ما نظم إقامته وجهز إنكشاريته ودربهم قبل أن يكوّن قوات من المماليك سادة مصر السابقين والذين أبقى عليهم العثمانيون.

واهتم دى ريير بأمرين، هما: التعرف على حالة البلاد، وإتقان معارفه باللغة العربية. وقدم القنصل أول تقاريره عن الحالة المادية والسياسية للبلاد، وشرع فى ترجمة القرآن التى أخذت عنوان "قرآن دى ريير"، وحتى ظهور هذه الترجمة

عام ١٦٤٧ لم يكن للقرآن سوى ترجمات لاتينية يستخدمها المناظرون المسيحيون خلال مناظراتهم اللانهائية مع فقهاء الإسلام.

وسمحت الترجمة الفرنسية للقرآن التى قام بها دى ريير بعد إقامته لفترة طويلة فى القاهرة ثم فى القسطنطينية فى عام ١٦٣٠ بقلب العلاقات بين الغرب والإسلام. وفى مقدمته للقرآن، يعطى لنا ريجى بلاشير Régis Blachère فكرة عن الأثر الذى أحدثته هذه الترجمة على أوربا:

"ظهرت ترجمته عام ١٦٤٧ فى باريس تحت عنوان "قرآن محمد"، وحظيت فى الحال بشهرة عظيمة مردها اهتمام الجمهور المثقف آنذاك بالعالم الإسلامى أكثر مما نتخيله بكثير، وتوالت الطبعات؛ فخلال خمس سنوات صدر ما لا يقل عن خمس طبعات، وبالإضافة إلى ذلك نالت شرف الترجمة إلى الإنجليزية (١٦٨٨)، والهولندية (١٦٩٨) والألمانية (دون تاريخ). وخلال ما يقرب من قرن توالت الطبعات بإضافة - أو دون إضافة - تعديلات وتضاعفت النسخ المقلدة" (١).

وبعد وقت قليل من وفاة دى ريير عام ١٦٦٠، قام فيلسوف أوروبى بالدق على أبواب فرنسا لدفعها لغزو مصر ومن ثم توجيه ضربة قاضية للإسلام .. إنه الفيلسوف الشهير ليبنتز، وتمثل مسيرته فى بلاط لويس الرابع عشر حتى يومنا هذا أحد ألغاز التاريخ المشترك للغرب والإسلام.

وأخذ فيلسوف المونادولوجيا (الأحاداتية) (*) - الذى تحول إلى خبير بالخطط الحربية الاستراتيجية - الوقت ليضع لصديقه البارون بوانبور (٢) مشروعًا عظيمًا لحرب صليبية حديثة ينتزع بها من الإسلام ومن الإمبراطورية العثمانية مقاطعتها المفضلة مصر.

(*) مذهب الأحادات أو الذرات الروحية، وهى نظرية ليبنتز الفلسفية المؤمنة بأن الكون مؤلف من عناصر أولية . (المترجمة)

واستهدف مشروع ليبنتز – الذى كان أيضًا صديقًا لبوسويه - Bossuet إثناء لويس الرابع عشر عن نيته غزو هولندا، لقد كانت النوايا الحربية للملك الشمس تثير ذعر ملوك وأمراء أوربا وتقلق بصفة خاصة أمير ماينس Mayence ووزيره، وكان هذان الأخيران يعرفان أن ليبنتز يعمل منذ عدة سنوات فى مشروعه المصرى "مذكرة لغزو مصر" التى سريعًا ما لاقت قدرًا غريبًا.

ولكن كيف كان يمكن تغيير نوايا لويس الرابع عشر؟ أرسل بوانبور Boinebourg – بالطرق الدبلوماسية – مشروع ليبنتز إلى لويس الرابع عشر نحو نهاية عام ١٦٧١ .

وحطم رد الملك اللاذع بصورة مزدوجة حلم ليبنتز وآمال أمير ماينس، فقد كتب أرنو دى بونبون Arnault de Pomponne وزير الخارجية فى رده لبوانبور المؤرخ ٢١ يونيه ١٦٧٢: "إن هذا النوع من الأهداف ليس من قبيل الموضة منذ زمن القديس لويس".

ففى الواقع كان الملك الشمس قد قرر أثناء توجهه لهولندا الحفاظ على التقليد القديم للتحالف مع الباب العالى، وكان قد جدد لتوه علانية اتفاقات "الامتيازات الأجنبية" الشهيرة.

وتوفى بوانبور بعد ذلك بعدة شهور فى ديسمبر ١٦٧٢ ومن بعده شونبورن Schoenborn فى فبراير ١٦٧٣، وكان ليبنتز بمذكرته لغزو مصر قد أعد مشروعًا كاملاً ومفصلاً يعيد رسم دخول جيش فرنسى مصر بصورة دقيقة ، ووصف فى هذه المذكرة الشعب والموارد والتحصينات والنقاط الاستراتيجية، وقدم كل هذا تحدوه رغبة مذهلة فى إقناع الملك الشمس ودفعه بهذه الطريقة إلى الغزو الذى قدمه له وكأنه نوع من "النزهة" فى البحر المتوسط متوجة بصورة بديهية بالمجد والرخاء.

> **"يعد هذا المشروع واحدًا من أكبر المشاريع التى يمكن القيام بها وأكثرها يسرًا وأخلاها من المخاطر حتى فى حالة إخفاقه، وذلك لمناسبته للظروف الحالية حتى لنظن أن هذه الظروف قد دبرته،**

وسيصل هذا المشروع بالناس إلى ذروة الإعجاب بما يسمى "سر المعجزة"؛ أى هذه الحكمة العميقة للرؤى السياسية التى تتلاقى فيه، وسوف يرسخ هذا المشروع بصورة مؤكدة السيادة فى البحر والتجارة ولا يتطلب أية موارد سوى التجهيزات البسيطة المعدة سلفًا (هذه التجهيزات كانت موجهة للهجوم على هولندا)؛ وسوف يحقق هذا المشروع للملك التعاطف الدولى بإزالة الشكوك تجاهه وإنهاء العداوات، كما سيحقق له الهيمنة على الأعمال والسيادة العليا على شئون المسيحية، وسيمهد الطريق لخلود الملك نفسه ليحقق فتوحات جديدة بالإسكندر، ولن يكون هناك مجال للندم على التأخير إذا أحسن اغتنام الفرصة" (٣).

وبعد ذلك يشير الموضوع إلى منظور لويس الرابع عشر للمجد قبل أن يقدم له الخطوط العريضة للمشروع فى فصل بعنوان: "جوهر المشروع" قائلاً:

"تعد الحملة على مصر وسيلة للسيطرة على المصالح العامة. إن جل مصالح الملك يمكن أن يضعها فى مصر، وبالفعل يعتبر غزو مصر حقًا لفرنسا، لأن الادعاء بإقامة مملكة عالمية هنا هو محض وهم، بل محض إثم، وسيكون من قبيل العبث إقامتها فى أوربا مقابل ثمن باهظ من العنف والدم والقتل. أما هناك فستسيطر فرنسا على الأقدار وتحكم العالم وتسيطر على المسيحية لتضطلع بدور مهم فى الكنيسة، وتتمتع بلقب الابن البكر مما يكسبها التعاطف العالمى واعتراف البابا نفسه. وفرنسا التى تجمع بين الشجاعة والعبقرية ستصبح بعد ذلك مدرسة أوربا الحربية وسوقًا للمحيط والبحر المتوسط وسيدة تجارة الشرق. وأنا لا أتحدث عن لقب إمبراطور الشرق وحقوقه التى كانت ملكًا لها كما يجب أن تبقى كذلك دومًا" (٤).

ثم يشرع ليبنتز فى مقارنة غريبة بين مصر وهولندا لا تخلو من نوع من العمق قائلاً:

"كان هذا البلد فى الماضى مستودع غلال روما، وأصبح اليوم مستودع غلال تركيا التى تأتى إليه لتأخذ منه الكتان والتيل ومؤن البحر والأرز والشراب ومنتجات أخرى كثيرة تمدها بها مصر وتقصرها عليها تقريبًا، وكذلك إذا كان النقد التركى يخرج من أوربا عن طريق التجارة؛ فالمؤكد أن ذلك يتم عن طريق مصر وحدها، ولذا كان القانون اللاهوتى يمنع فيما مضى أى تصدير للذهب والفضة لمسلمى مصر؛ لأنه كان يدرك أن هذا الابتزاز سوف ينتهى بإفلاس أوربا. والخلاصة أن مصر هى هولندا الشرق، كما أن فرنسا هى صين الغرب، بيد أن مصر تتفوق بثرواتها الطبيعية على هولندا كما تتفوق فرنسا على الصين؛ لأن مصر بلد يعتمد على نفسه ويزدهر منذ بداية التاريخ، أما هولندا فتدين بنموها إلى الراسب الرملى المتجمع عبر السنين بكد الشعب وحماسته الدينية ولا تستمر فى الحياة إلا بفضل غفلة الآخرين وانقساماتهم" (٥).

ثم يفرد بعد ذلك الفيلسوف فصولاً تتعلق بالاستراتيجية الحربية البحتة يقدم لنا فيها أرقامًا مذهلة ومعلومات عن حالة الدفاع فى مصر (كان ذلك عام ١٦٧٢)، وقدم سيناريوهات غاية فى الذكاء لمجابهة ميلشيات المماليك أو الجيش التركى تتسم كلها بنفس روح الوطنية وظلت صورة هولندا فى كل ذلك تلح على أفكاره، فيقول:

"علينا بتجهيز فرقة قوية وإعداد كل شىء بطريقة تسمح للملك بإصدار أمره اليوم، بل هذا المساء أو غدًا صباحًا ويتم تنفيذه، على ألا يتم تسريب أى شىء عن الخطط المتفق عليها وألا يشك أحد فى الهدف الحقيقى من هذه الاستعدادات؛ فيكفى ٣٠,٠٠٠ رجل للقيام بهذه المهمة، وما كان لملك حذر مثل عمانويل ملك

البرتغال أن يوجه مثل هذا العدد لتحقيق هذه الغاية، وسوف نخصص للحملة فائض قوات الدولة، أى جزءًا فقط وليس الكل فى الوقت نفسه، وهو العدد اللازم "لعملية الهجوم" إذا صح التعبير. لقد حبت الطبيعة كلاً من مصر وهولندا بظروف مماثلة: فيلعب النيل هنا نفس دور الراين، ولكن ليس هناك مجال فيما يتعلق بالتحصينات؛ فالساحل المصرى مفتوح ذو مدخل سهل بالنسبة لرجالنا الخبراء فى فنون البحر، فإذا ما تم جمع السفن وتكوين الأساطيل سيجلب مجد العمل فى عملية من هذه النوعية أفواجًا من المتطوعين من كل البلاد. أما عن نقل المقاتلين بحرًا فإن ذلك يمتاز بأن التدريب وروح العسكرية والنظام تعد عناصر كفيلة بخفض أعداد المصابين بأمراض البحر وحصرها فى حدود ضيقة يمكن السيطرة عليها بشكل جيد. وفيما يتعلق بأمراض البحر، فهى ليست ذات خطورة، وذلك لقرب المسافة، وإن النقل البرى قد أدى دائمًا إلى نتائج سيئة.

العبور السريع: عادة ما يتم قطع المسافة من مرسيليا إلى الإسكندرية فى ستة أسابيع وأحيانًا شهر واحد [٦]، وقد أصبح عبور البحر المتوسط بالنسبة للبحرية الفرنسية لعبة، ونادرًا ما نسمع الحديث عن كوارث ذات أهمية، وإذا ما وصلت إلى جزيرة كريت تكون قد قطعت ثلثى المسافة".

وسريعًا ما اكتسبت مذكرة غزو مصر صيتًا واسع النطاق فى أوربا، ففى فرنسا ظل المشروع مجمدًا فى أدراج الوزارات ببساطة لأن فرنسا ظلت مرتبطة بالباب العالى بمعاهدة الامتيازات الأجنبية وهذا ما لم يفت على فطنة ليبنتز إذ يقول:

"لا يوجد شىء أكثر عدلاً من الحرب المقدسة؛ فهى مشروع لخير الإنسانية ومصلحة المسيحية وخلاص التعساء الذين يرجون

مساعدتنا من أجل القبر المقدس ومن أجل الانتقام من غطرسة وإهانات البرابرة التى عانت منها فرنسا نفسها، ومن ناحية أخرى لا أعتقد أن هناك اتفاقات خاصة تربط فرنسا بالباب العالى؛ فإذا ما كانت الحملة على كريت وديجلى مشروعة؛ فالحملة على مصر ليست أقل مشروعية، وفى الميزان الذى سوف تزن فيه حكمة الملك هذا المشروع يجب أن يفكر فى خلاص الآلاف من البشر، بل إن السماء نفسها تنتظر قراره، فها هنا المجد والمآثر والقيم والإيمان، وهنا التكفير عن سيئ الأعمال، هنا أخيرًا الخلاص" (٧).

وعشية وفاة لويس الرابع عشر عام ١٧١٥ - والذى لحق به ليبنتز بعد ذلك بعام- أحيطت "مذكرة غزو مصر" بهالة من الغموض فى أوساط السياسة الفرنسية.

وكانت الإشاعات تزداد حول موضوع هذا المخطوط الذى تم إيداعه مكتب الملك، ويبدو أن ليبنتز كان يتوقع رفض المشروع لذا فقد حفظ فى السر الوثيقة الحقيقية التى تبلغ ثلاثمائة صفحة والتى كانت تصف بصورة مفصلة الخطوات والخطط اللازمة لغزو مصر طالما لم يحصل المشروع على ترحيب الملك.

والواقع أن المخطوط الذى تسلمه أرنو دى بونبون لم يكن سوى ملخص من خمسين ورقة، وتم حفظ نسختين من الوثيقة باللغة اللاتينية بمكتبة هانوفر، وأرسل الكولونيل إدوارد مورتييه - ممثل نابليون بمدينة هانوفر - إحداهما إلى الأخير بعد ذلك بنحو قرن.

واعتبارًا من ١٧٩٧ - أى قبل عام من حملة بونابرت إلى مصر- كانت تثار إشاعات حول مشروع ليبنتز حتى اتهم الإنجليز نابليون بنقل هذا المشروع عام ١٨٠٢ بعد استسلام جيشه فى مصر.

وكان بونابرت على علم بوجود هذا المشروع، ولكنه لم يقرأه إلا فى عام ١٨٠٣، وحينذاك طلب من صديقه مونج Monge رئيس علماء حملة بونابرت على مصر ترجمته

وتلخيصه، وفى عام ١٨١٥ أودع مونج المخطوط بمكتبة المعهد مرفقًا بمراسلات مورتييه Mortier ونابليون.

وبعد خمسة وعشرين عامًا قدم جروهاور - Gruhauer وهو علامة ألمانى مولع بليبنتز - بدوره للمعهد ذاته بحوثًا هامة حول "مذكرة غزو مصر" وترجمة غير كاملة لها، وفى عام ١٨٤٢ فقط قدم الأكاديمى فاليه دى فيريفيل Vallet de Viriville ترجمة كاملة للعمل تم نشرها فى "لا ريفو أندبندنت (La Revue indépendante" المجلة المستقلة) فى الأول من مارس عام ١٨٤٢ .

ويقول الباحثون إن هناك بعض الغموض الذى يحيط بقصة المخطوط بدءًا من موقف أمناء مكتبة هانوفر وحرصهم على إخفاء المخطوط ورغبتهم فى عدم الكشف لإدوار مورتييه – Edouard Mortier وغيره من الفضوليين – إلا عن بعض الملخصات(٨).

وفى ظل حكم لويس الخامس عشر أخذت الأحداث منعطفًا آخر؛ فقد كان شبح ليبنتز على وشك الظهور فى أروقة وزارتى الخارجية والبحرية ليلح على خاطر بعض كبار الوزراء والقناصل، واتسع نطاق الظاهرة خلال القرن الثامن عشر كله قبل تنفيذ المشروع عام ١٧٩٨ مع حملة بونابرت.

ولم تتم دراسة العلاقات بين الإسلام والغرب بشكل كافٍ خلال تلك الفترة اللامعة التى اتفق على تسميتها عصر التنوير.

فقد جاء القرن الثامن عشر بصحبة مميزة من الملوك العظام والكتاب الكبار والموسيقيين المبدعين ولاسيما بعد ظهور الذهب فى الهند الذى تم استيراده بفضل التجارة التى تقوم بها الشركات البحرية الأوروبية مع الشرق الأدنى والأقصى؛ أى بإيجاز مع الفضاء السياسى الإسلامى، وهذا العالم الإسلامى – المستنفد القوى من جراء الحروب الصليبية والحروب الصليبية المضادة – ظل فى حالة ارتباط بهذا الغرب المسيحى الذى جاء ليفرض نفسه بكبرياء وخيلاء حتى فى بلاط السلطان العثمانى

حامى الأماكن الإسلامية المقدسة، وحينئذ ظهر تعبير "الرجل المريض" الذى كان يشار به فى مستشاريات القوى الأوروبية الكبرى إلى الإمبراطورية العثمانية.

ويمكننا التأكيد على أن تجارة الغرب مع الهند ومراكز الشرق التجارية هى التى فتحت الطريق "لثقافة الآخر" والتى تغلبت بصورة لا يمكن إنكارها على الإسلام، ونجحت التجارة بالفعل حيث أخفقت من قبل الأسلحة بصورة تدعو إلى الأسى.

وهذه التجارة وتلك الثقافة اللتان يمارس بهما الغرب حتى يومنا هذا سيطرته على العالم الإسلامى لا تزالان تسببان انتفاضات مسلحة بدأت تحديداً فى مطلع قرن التنوير والذى لم ينته قبل أن نرى جيش بونابرت وهو يحطم أبواب الحجاز - قلعة الإسلام السنى - لينشأ أول صراع ثقافى فى العصور الحديثة بين الغرب والإسلام.

وفى الوقت الذى جهزت فيه أنوار العلوم ومؤلفو الموسوعة العالم للثورة الفرنسية، كان هناك آخرون فى أروقة وزارتى البحرية والخارجية فى عهد لويس الخامس عشر والسادس عشر يناقشون بضراوة إمكانية غزو مصر، أكان الأمر يتعلق فى عقل هؤلاء الرجال بتعجيل سقوط "الرجل المريض" الذى كانوا يرتبطون به لا بمعاهدات الامتيازات الأجنبية فحسب ولكن أيضًا بصداقة طويلة؟ أم كان الأمر يتعلق فقط باستغلال "الرجل المريض" بالاستيلاء على إحدى ماسات تاجه ؟ إن الرد يستوجب بعض الإيضاح.

فى ذلك الوقت كان من الأهمية بمكان بالنسبة للويس الرابع عشر الإبقاء على علاقات طيبة مع الإسلام وممثله السياسى ألا وهو السلطان العثمانى، وقد كان بالفعل محتاجًا لذلك للحفاظ على توازن سياسته الأوروبية، أما بالنسبة لمصر ولمشروع ليبنتز - وكثيرًا ما كان يثار فى البلاط الملكى - فكان الملك يعبر عن أمل واحد يتمثل فى نقل عامود السوارى الموجود بالإسكندرية إلى أحد الميادين الكبرى فى عاصمة مملكته.

ونشر بنوا دى ماييه Benoit de Maillet أحد أعظم قناصل فرنسا فى عام ١٧٣٥ كتابًا يتحدث عن الستة عشر عامًا التى أمضاها قنصلاً فى مصر فى الفترة من ١٦٩٢ وحتى ١٧٠٨ تحت عنوان "وصف مصر".

وإذا كان بنوا دى مايـيـه يقـتـرح فى هذا الكتـاب [٩] نقل عـامـود السـوارى من الإسكندرية إلى باريس فهو يرسم أيضًا اللوحة الأولى لمصر الإسلامية يجمع فيها - بسحر ودقة - التفاصيل المعمارية للمساجد ومشاهد الحياة اليومية فى القاهرة والإسكندرية.

ومن هذا التقرير الكبير عن مصر الإسلامية لم يستبق مع ذلك لويس الرابع عشر إلا على قصة نقل عامود السوارى، وكان وزير خارجيته الشهير الدوق دى شوازيل Le duc de Choiseul هـو الـذى فهـم بـبراعة هـمزة الوصل بين شبح ليبنتز ونجاح وصف مصر [١٠].

وكان الدوق دى شـوازيل Choiseul قـد تقلد تباعًا منصب وزير دولة للشـئـون الخارجية[١١]، ووزير حـرب ووزير بحـرية [١٢] ولذا كان من رجال السـياسة النادرين الذين قدروا أهـمية مشروع غزو مصـر، وكان هذا المشروع قد تم تصوره كجزء من مشروع غرب - شرق، وكان له هدف مزدوج يتمثل فى منع الإمبراطورية العثمانية من الانهيار وبطريقة غريبة - تجهيز وضع يد فرنسا على أهم مقاطعة - مصر - فى حالة الانهيار المفاجئ لهذه الإمبراطورية.

وكان شوازيل يفكر منذ بعض الوقت فى طريقة يزود بها فرنسا بأراض جديدة لتعويض خسارة الجزء الأكبر من مستعمراتها فى كندا والهند والسنغال غداة حرب السنوات السبع[١٣] التى انتهت بمعاهدة باريس التى منحت إنجلترا المستعمرات الفرنسية.

ومع ذلك ظلت أولوية أخرى تلح على خاطره وتتمثل فى منع إنجلترا من الاستفادة من المستعمرات الفرنسية ولاسيما بقطع الطريق الذى يؤدى إلى أكبرها وهى الهند وذلك باحتلال بعض جزر البحر المتوسط الكبرى ومصر، ولتحقيق هذا الهدف ضم شوازيل جزيرة كورسيكا لفرنسا عام ١٧٦٨ قبل عام من مولد نابليون، أما بالنسبة لمصر فإن هذا الأخير هو الذى غزاها بعد ذلك بثمانية وعشرين عامًا، و أعطى شوازيل أوامره لفيرجان Vergennes سفيره فى تركيا لإعداد دراسة حول احتمال انهيار الإمبراطورية العثمانية وسبل الاستفادة من ذلك[١٤].

ويبـدو أن فـيرجان لم يكن محبذًا لفكرة التعجيل بسقوط الإمبراطورية التركية أو الاستفادة منها، فقد كان السفير – الذى أصبح فيما بعد وزير خارجية لخليفة لويس الخامس عشر – ينتمى فى الواقع إلى المدرسة الفرنسية القديمة المرتبطة بتقاليد الصداقة الفرنسية العثمانية التى نشأت من معاهدة الامتيازات الأجنبية التى وقعها فرانسوا الأول وسليمان العظيم.

وهكذا بينما كان لويس الخامس عشر يفكر فى عامود الإسكندرية، ظل شبح ليبنتز يؤثر على السياسة الخارجية إزاء قوى الإمبراطورية العثمانية ومن ثم العالم الإسلامى.

وسريعًا ما خلع شوازيل سفيره المعوق فى اسطنبول ليعين محله سان بريست Saint - Priest ذلك الدبلوماسى الذى كان شبح ليبنتز يلح على خاطره.

وفى عام ١٩٢٩ أعد فرانسوا شارل رو François Charles - Roux – بناء على طلب ملك مصر الملك فؤاد – دراسة مذهلة عن غزو مصر وضح فيها حالة القديس بريست الذهنية والذى كان مصممًا على إقناع حكومة لويس الخامس عشر بعدم إضاعة الوقت فى انتظار سقوط السلطان وعلى العكس تأجيله ولكن قبل كل شىء التفكير فى "التعويض" الذى يمكن أن يطالب به السلطان عند انهيار الإمبراطورية.

> **"وتوقعًا لتداعى الإمبراطورية العثمانية [..] اختار شوازيل القديس بريست وعينه سفيرًا – على الرغم من أن مهمته فى القسطنطينية قد امتدت لأكثر من ثلاثة عشر عامًا بعد سقوط الوزير الذى كلفه بهذه المهمة – ومن المفترض أنه كان متفقًا مع الوزير الذى عينه لهذا المنصب حول موضوع الشرق وسياسة فرنسا الشرقية، وقد التقى الرجلان قبل رحيل السفير ودار بينهما حوار سرى، وتبادلا الآراء واتفقا على أن يسلم السفير معلومات مكتوبة" (١٥).**

ولكن يبدو أن شبح ليبنتز كان أكثر إيجابية فى وزارة البحرية حيث كلف الكونت دى بوان - Comte de Boynes خلال الأسابيع الأخيرة من حكم لويس الخامس عشر – القديس ديدييه Saint - Didier مندوبه الأول بإعداد مذكرة عن مصر.

"فبناء على التوضيحات التى حصلت عليها وبناء على تجربة كل الأشخاص تقريبًا الذين تخضرموا فى إدارة شئون الشرق والذين يجب بالتالى أن يكون لديهم أوسع المعلومات عن مختلف أقاليم هذه الإمبراطورية وبناء على تجربتى الشخصية أعتقد أن مصر تقدم لنا المؤسسة الوحيدة التى يمكن أن يقدم تأسيسنا لها مزايا وذلك بسهولة وأمان" (١٦).

وأعطى بعد ذلك سان ديدييه، بنفس أسلوب ليبنتز، كل التفاصيل اللازمة للغزو:

"وفى هذه القضية أقترح غزو مصر كخطة محتملة ولكن يجب أن تجذب فى هذا الوقت انتباه الحكومة كله لمناقشة مزايا هذا المشروع وعيوبه، ولم يكن لدىّ الوقت اليوم للدخول فى أية تفاصيل حول مزايا غزو مصر، ولم يرد الملك إلا الحصول على عرض بسيط وقصير لطريقة تفكيرى حول الموقف الذى يجب أن تأخذه فرنسا فى حالة وقوع الثورة المتوقعة فى الإمبراطورية العثمانية. وإذا كانت هذه الثورة تبدو له ذات طبيعة يمكن تعميقها فسوف أتناول الموضوع بشكل أوسع، وسأكتفى فى البداية بأن أجعله يرى بصورة عامة أن غزو مصر فى رأيى هو أفضل وسيلة لإحباط أو على الأقل لمعادلة رؤى روسيا وإنجلترا الطموحة، لجعل فرنسا – بطبيعة الحال – سيدة تجارة الهند دون إطلاق رصاصة واحدة لإلحاق إمبراطورية البحر المتوسط "بأسرة البوربون" وأخيرًا لإيجاد مستعمرة تملك السكر والنيلة مستقلة عن أمريكا وعن القدر الذى يمكن أن يجهزه المستقبل

لأوربا ولاسيما فيما يتعلق بالعالم الجديد. وسأضيف فقط أن الاستيلاء على مصر لا يمثل صعوبات كبيرة إذا كان يتعين علينا فقط هزيمة المماليك والأتراك الموجودين بها؛ ولكن ينبغى أساسًا النظر إلى الحفاظ على هذا البلد قبل الشروع فى الغزو حتى لا نتعرض فى لحظة لخطر فقدان ثمرة العناية والنفقات التى بذلناها (١٧)".

وكان الموقف المأسوى للجيش التركى خلال حرب كريميه Crimée ضد روسيا فى فترة حكم كاترين قد عزز مشروع ليبنتز وأنصاره الفرنسيين، وقد أصبح هذا الموقف مهينًا بصورة أكبر بعد معاهدة قينارجى Kainardji التى أجبر الروس الأتراك على توقيعها عام ١٧٧٤ .

وكان من نتائج وفاة لويس الخامس عشر ظهور المشروع مرة أخرى داخل الدبلوماسية الفرنسية، ووجد هذا المشروع مؤيدين أكثر من المدرسة التقليدية المرتبطة بمبادئ معاهدة الامتيازات الأجنبية.

وعندما وصل لويس السادس عشر إلى العرش كان فى مصر فرنسى موهوب مكلف بمهمة محددة تتمثل فى إعداد خريطة للبلاد وتقرير عن الموقف؛ إنه البارون دى توت Tott ويستحق منا هذا الرجل عناية خاصة.

كان أهله مجريين يعملون فى خدمة فرنسا كخبراء فى كل ما يتعلق بالشرق العثمانى وأصبح البارون – وهو رجل ذكى وعلى دراية واسعة بالثقافة الإسلامية – عميلاً فرنسيًا يناط به دعم الجيش التركى فى حربه المأسوية فى كريميه، وقد تم حثه أيضًا على منع هزيمة تركيا بكل الوسائل؛ لأن من شأنها أن تؤدى إلى عواقب وخيمة على سياسة فرنسا الخارجية.

وبعد اتفاقات قينارجى اقتنع البارون بالانهيار الوشيك للإمبراطورية وبالضرورة المطلقة لتملك فرنسا أراضى للحفاظ على مصالحها التجارية فى مراكز الشرق التجارية.

وعند عودته إلى باريس عام ١٧٧٦ قابل فيرجان وزير خارجية لويس السادس عشر، وكان سفير فرنسا السابق فى اسطنبول لا يزال يعارض بشدة كل مشروع من شأنه الإضرار بالصداقة التقليدية بين فرنسا وتركيا، وقد سلم البارون لوزير البحرية الكونت سارتين Sartine المذكرة الغريبة المعنونة "دراسة عثمانية ووجهات النظر التى تحددها بالنسبة لفرنسا"، وقد شرح فيها تفاصيل فنية دقيقة لغزو مصر موضحًا الفوائد التى يمكن للويس السادس عشر الحصول عليها من هذا الغزو. وانتهى تقريره بهذه الجملة التى تلخص عرضه:

> **"دولة دون دفاعات تحت سيطرة قوة تم القضاء عليها تقريبًا، أمة تجارية وشعب سيئ يخضع دائمًا لأول عبد تغلب عليه إرادة السيطرة عليه ولا يظهر أدنى مقاومة [..]، ويستلزم غزو مصر بالكاد بعض القوة للحفاظ عليها، وهناك خطتان للعمليات يتعين على المجلس أن يختار واحدة وذلك وفقًا لرغبة فرنسا فى شن الحرب بمفردها أو بالاشتراك مع النمسا" (١٨).**

وقد أعجب الكونت دى سارتين كثيراً بمذكرة توت وطلب من القديس ديدييه أمين دولة سلفه دى بوان تقريراً عنها فى أغسطس ١٧٧٦ .

وكان القديس ديدييه أشد حماسة لمشروع غزو مصر من ليبنتز، وسريعًا ما سلم للوزير تقريراً ضخمًا يعطى عنوانه لمصر – للمرة الأولى – وجوداً خارج الفضاء السياسى العثمانى وهو "ملاحظات عن مصر". وبعد ديباجة مطولة عن الموقف المتردى فى هذه الإمبراطورية خصص القديس ديدييه ثمانية فصول عن موضوع غزو مصر تشكل الثلاثة الأخيرة منها المفاتيح الحقيقية لفهم الموضوع والدراسات التى يجب إعدادها قبل القيام بأية حملة.

وعنون الكاتب هذه الفصول الثلاثة تباعًا: "دراسة المزايا التى يمكن تحقيقها من غزو مصر"، و"هل غزو مصر أمر ممكن"؟ و"هل كان أو سيصبح غزو مصر ضرورة؟" وأعطى إجابات للأسئلة المطروحة ..

فيما يتعلق بمزايا الغزو قال:

"إن بلدًا بمثل هذا الثراء وهذه الخصوصية بالرغم من القهر الذى يعانى منه يمثل أمة متحضرة وعلى علم بالموارد المتعددة وأكبر التسهيلات لزيادة إنتاجها ودخلها، إن الإصلاح المتوالى لقنوات النيل القديمة التى تم سدها سوف يوفر الرخاء لكل أنحاء مصر التى أصبحت قاحلة، وسوف تدر هذه المملكة وحدها قريبًا مبالغ كبيرة وتوفر مواد لتجارة ضخمة، فليس هناك ثمة مستعمرة يمكن أن توفر نفس المزايا فى رأى رجل محايد، ولكن فى الوقت ذاته إذا ما نظرنا إلى مصر كمجتمع تلتقى فيه الشعوب الأكثر بربرية والأكثر تحضرًا فى نصف الكرة الشمالى وكمخزن أساسى ولازم للبضائع القادمة من أوربا وآسيا وإفريقيا وإذا ما نظرنا إليها بوصفها النقطة المركزية التى يجب أن تصل إليها غالبية ثروات هذه الأطراف الثلاثة من العالم، فإننا بذلك نثبت أن مملكة مصر ستظل تسيطر على التجارة العامة للعالم القديم.

ومن الذى يمكن أن يمنع نفسه من حماس وطنى إزاء مشروع يوفر لمصر ثروات طائلة ويمدها بالوسائل التى تجعل منها أعظم قوى أوربا؟

ولنلق نظرة على موقع مصر الجغرافى .. فهى فى موقع متوسط بين البحرين المتوسط والأحمر فى الطرف الشرقى من إفريقيا حيث يربطها برزخ السويس بآسيا، وهى فى موقع يسمح لها باستقبال منتجات إفريقيا وآسيا وأوربا وتسهم مختلف أقطار إفريقيا فى إثراء تجارة مصر، ودون الحديث هنا عن قوافل المغرب وممالك الجزائر وتونس وطرابلس وكل ثمين تملكه إثيوبيا

والحبشة يحمل إلى مصر، ولا يقوم الإثيوبيون أنفسهم بهذه التجارة فهذه الشعوب لا تمارس التجارة بعيدًا عن بلادها إلا نادرًا، فهي تبيع بضاعتها لسكان النوبة ويعبر هؤلاء الجبال الشاهقة التي تفصلهم عن مصر ليقدموا بضاعة هذه الأقطار، وكل عام تغادر قافلة سنار Sannar متجهة إلى القاهرة، وإنني على قناعة بأن أمة صناعية يمكنها على الأقل مضاعفة هذه التجارة بدراسة ذوق واحتياجات النوبيين والحبشيين والإثيوبيين بتزويدهم بالبضائع التي تناسبهم أكثر.

تلك هي المزايا الكبيرة التي تمثلها مصر، ولكنها لا تمثل شيئًا أيضًا إذا ما فكرنا في أن فرنسا يمكن أن تستولي وحدها على كل تجارة الهند بالسيطرة على مصر. ويعد وجودنا في هذا الجزء من العالم ضعيفًا للغاية، فقد حل الإنجليز محلنا في معظم الأماكن، وينعمون بهدوء بما خلفناه من غنائم، فيستحيل اليوم أن تسترد فرنسا تفوقها في الهند؛ إن استعادة مراكزنا والقضاء على سلطة الإنجليز هناك يستلزم بذل جهود شاقة، وعلاوة على ذلك لن نستطيع أن نزهو بأي نجاح، فلنترك لمنافسينا طريق رأس الرجاء الصالح ولكن لا يجوز لنا أن نترك لهم تجارة نفيسة، فلنصب تجارتهم في الهند بضربة قاضية دون استخدام الجيوش، إن تمركزنا في مصر سيسمح لنا بشراء – بسعر أقل من الإنجليز – بضائع الهند وبيعها لشعوب أوربا بسعر أفضل منهم أيضًا، إذا كانت هذه الحيلة لازمة في البداية للحصول على الأفضلية، ولنفتح ميناء السويس للهنود ولنتعامل مع ملوكهم ولنذهب بسفننا لننقل بضائعهم؛ وبعد قليل لن يتحمل الإنجليز منافستنا ويتركوا بلدًا لن يستطيعوا فيه منافستنا تجاريًا، وليس

على فرنسا إلا القيام بثورة تقضى على منافسيها وتفتح لها معينًا لا ينضب من الثروات. وعادة ما تقطع المسافة بين مينائى بروفانس Provence والإسكندرية فيما بين خمسة عشر إلى عشرين يومًا والسفر النيلى من الإسكندرية إلى القاهرة صيفًا لا يستغرق سوى ثلاثة أو أربعة أيام؛ إن الجمال التى تنقل البضائع من القاهرة إلى السويس تقطع الطريق فى يومين، وسوف نستخدم الجمال حتى نتمكن من إعادة فتح القناة القديمة التى كانت تصل النيل بالبحر الأحمر. إن رياح الشمال التى تهب باستمرار على هذا البحر خلال شهور مرات عديدة فى السنة ستساعد سفننا الموجودة فى السويس على سرعة بلوغ موانئ الهند، ويمكننا حتى التأكد من أن البضائع التى ستنقل من مارسيليا يمكن أن تصل الهند خلال شهرين ونصف أو ثلاثة أشهر على الأكثر، وأن النقل فى خط السير العكسى لن يستغرق وقتًا أطول إذا ما أحسنا اختيار الفصول. وهذا الطريق سيجنبنا خسارة عدد كبير من الرجال الذين يصابون بأمراض معتادة خلال الرحلات القصيرة كل عام، وسوف يمكننا تزويد جزر فرنسا وبوربون بقمح مصر- إذا رأينا من المناسب الإبقاء عليها، ويصل إلى مصر سنويًا بطريقة اعتيادية ٥٠٠ سفينة من موانئ تركيا والعالم المسيحى .. ويمكننا أن نجعل كل هذه التجارة لصالح فرنسا، فيقوم الفرنسيون بنقل كل بضائع أوربا إلى مصر ويحضرون من مراكز الشرق التجارية كل بضائع تركيا .. ويمكن أن يلعبوا نفس هذا الدور فى الطريق العكسى. وسيقوم أسطول الملك بتجارة الهند ومصر وإفريقيا دون خشية أية منافسة" (١٩).

وبعد هذا الجواب الطويل يخبرنا القديس ديدييه:

"بيد أن هذه المزايا لا تكفى لإرسال حملة لها مثل هذه الطبيعة فيتعين حل مشكلة ثانية على نفس قدر الأهمية وهى: هل سيكون هذا الغزو أمرًا يسيرًا؟ "

ويلفت الكاتب للمرة الأولى الانتباه إلى التكاليف والمخاطر التى يجب تحملها .. وهذه التفاصيل تكتسب أهمية خاصة فى إبراز تطور العقلية فيما يتعلق بغزو مصر .. فنحن لسنا فى عصرى لويس الرابع عشر والخامس عشر الحالمين، فقد نضج المشروع والظروف الدولية تدفع العقول وتعجل الأمور باتجاه تنفيذ الحملة .. ويجيب القديس ديدييه بعد ذلك عن السؤال الثانى:

يمثل هذا السؤال شكًا وريبة، ولن أخفى المصاعب ولا الصعوبات .. سوف أقترح الوسائل التى تبدو لى الأفضل لإنجاح هذا المشروع مع تحديد الإجراءات المسبقة التى يجب الاهتمام بها قبل الشروع فى أى شىء، ويتعين أن نتفق على أن هذه الحملة ستكون مكلفة للغاية؛ فهناك مصاريف التسليح والنقل وجزئية التغذية والمئونة، أى باختصار كل التموين اللازم للغزو والاستيلاء على الممتلكات سيكون مكلفًا للغاية .. ولا أملك حق تقرير إذا ما كان الموقف سيسمح بالشروع فى تنفيذ هذه العملية على أنها تقدم مزايا ونفعًا على جميع الأصعدة .. سأقول فقط إن دولة كفرنسا يمكنها بل وعليها أن تبذل جهدًا عندما يتعلق الأمر بتدمير تجارة منافسيها للاستيلاء عليها واكتساب ممتلكات من شأنها الإضافة إلى عظمتها ومجدها وثرواتها.

ولن أركز مع ذلك على هذه النقطة للوصول إلى المسألة الكبيرة التى تخص الإنجليز، هل سيفكرون فى معارضة ذلك المشروع؟ وهل سيقدرون على ذلك؟ مما لا شك فيه أنهم سيرغبون فى

معارضة المشروع إذا ما عرفوا موضوع الحملة، ولكن لا يمكن التظاهر بذلك بسهولة. إن الإنجليز على دراية بكل ما يتعلق بالتجارة حتى لا يشعروا أن مصر توفر لنا - دون توجس أى خيفة من قوتهم البحرية - تجارة البحر المتوسط بل وتجارة الهند. إن الأرباح التى يمكن تحقيقها من الملاحة والتجارة فى البحر الأحمر لم تفت على شركة الهند الإنجليزية، فعند عودة الفارس بروس Brusse من إثيوبيا كُلف بمهمة التفاوض مع مدحت بك حول الحصول على إذن لصالح سفن بلاده لتنقل مباشرة إلى السويس بضائع الهند وكذلك خفض الرسوم الجمركية التى كانت تبلغ أكثر من ١٥٪، وبغية زيادة عائدات الجمارك وافق البك على مطالبه، وقرر أن الإنجليز لن يدفعوا سوى ٨٪ من الجمارك و٥٠ باتك Pataques عن كل سفينة لحاكم السويس كرسوم رسوّ، وفى عام ١٧٧٣ تم إرسال سفينتين من البنغال محملتين بالبضائع لمصر وتركيا، وغرقت السفينتان عند مدخل البحر الأحمر، بيد أن فشل هذه المحاولة الأولى لم يحبط الإنجليز، فغادرت بومباى يوم ٢٢ ديسمبر سفينتان أخريان ووصلتا السويس فى شهر فبراير التالى، وقد استقبل محمد رئيس الرحلة بحفاوة وبيعت البضائع بأكملها لتجار البلاد، وكان الإنجليز قبل ذلك يضطرون إلى إرسال بضائع الهند إلى جدة، وكانوا يدفعون جمارك باهظة ولذا يسعى باشا جدة وشريف مكة إلى إفشال الإنجليز لإعادتهم إلى جدة ولكنهما لن ينجحا إذا كان بكوات مصر يدركون مصالحهم الحقيقية، ويثبت هذا الأمر أن الإنجليز قد أحسوا النفع الذى قد يعود من مرور جزء من تجارتهم القادمة من الهند عن طريق مصر، وإذا كان الحافز من ناحية يمكن أن يزيد عزمهم على

معارضة حملتنا على مصر، فمن ناحية أخرى يمكن أن يشكل ذلك سببًا إضافيًا لنا للاستيلاء على بلد سيسعى الإنجليز إلى جلب الروس إليه للاستفادة من الميزات التى يقدمها وذلك لاستحالة استيلائهم هم أنفسهم على هذا البلد، ويدعى الكثير من الأشخاص أن الإنجليز يريدون محاولة هذا الغزو بأنفسهم، والمؤكد أنهم طلبوا من مهندسين رفع الخرائط والرسومات، ولكن للعودة للسؤال الذى طرحته أعتقد أن للإنجليز مصلحة حقيقية وسوف يكون لديهم إرادة مؤكدة لإفشال مشروعنا إذا ما أبلغوا فى وقت مناسب بآرائنا وأن يكون لديهم القدرة على إثنائنا.

وقد أستطيع القول بأنهم فى هذه الفرضية سيعلنون علينا الحرب، ولكن من المحتمل أن الظروف التى يجدون أنفسهم فيها تمنعهم، وسأقول بداية إنه من الممكن أن تخفى فرنسا مشروعها، وسأذكر السبل إلى ذلك فى جزء آخر من المذكرة، ولكنى أفترض العكس: فإذا ما أخطر الإنجليز بمشروعاتنا سيسعون إلى منعها، وفى هذه الفترة سنكون فى حالة حرب أو سلم معهم، وفى كلتا الفرضيتين لن يكون هناك ما نخشاه منهم إذا ما ساندتنا إسبانيا.

هل يمكن الاعتقاد بأن الإنجليز سيجرؤن على مهاجمة أسطول عظيم فى أعماق البحر المتوسط مع احتمال هزيمته من الفرنسيين والإسبان أو حتى عدم الوصول فى الوقت المناسب مما سيؤدى إلى النتيجة نفسها بالنسبة لهم، لأنه عند نزول جيوشنا فى مصر لن يخشوا شيئًا من جيش بحرى لن يقدر على شيء إزاء هذه الجيوش ولن يستطيع الصمود طويلاً فى البحر المتوسط" (٢٠).

وقبل الرد على السؤال الثالث يدرس القديس ديدييه نقطتين هامتين: ما هى الذريعة التى يمكن اللجوء إليها لاحتلال مصر؟ وماذا عن سير العمليات، أى ما نطلق عليه اليوم "سيناريو" العمليات.

وللرد على النقطة الأولى يلجأ الدبلوماسى الفرنسى للمكر ويقول:

"منذ بداية هذا القرن اقترض باشوات وبكوات مصر مبالغ ضخمة من الفرنسيين، ولم يتم سداد أغلبها، وقد تسببت هذه القروض لهم فى كل أنواع الإهانات دون مراعاة الاحترام الواجب للملك أو معاهدة الامتيازات الأجنبية التى يستمتعون بانتهاكها يوميًا .. وهذه القروض وهذه الإهانات مع الأرباح التى يمكن تقديرها تصل إلى مبالغ ضخمة. وأتفق مع البارون توت فى أنها تصل إلى حوالى أربعين مليونا، وقد يكون وزير الملك فى القسطنطينية مكلفًا بإبلاغ الوضع المالى للباب العالى ليطلب سداد هذه المبالغ وتعويضًا عن كل الإهانات التى تعرض لها الفرنسيون فى مصر، وسيكون رد الباب العالى هو الرد التقليدى وهو الأسف على عدم قدرته على إجبار المصريين على الطاعة لأن سلطته لا تمتد إلى هذا الجزء من الإمبراطورية .. وسيكون من العدل الرد عليه فى هذه الحالة بأنه بما أن سلطته لا يعتد بها وأن لا حول له ولا قوة فلسوف نقوم نحن بأخذ حقنا بأنفسنا، ووفقًا لهذه الإجراءات ستكون الحملة عادلة ومبررة"[٢١].

أما عن النقطة الثانية فيرسم لنا الخبير الاستراتيجى البارع القديس ديدييه بداية تصورًا عن قيادة جيش الشرق:

"إن اختيار القائد يعد أمرًا هامًا: فهو وحده الذى يجب أن يحمل السر، إن ضابطًا ماهرًا وجسورًا يجمع بين قيادات القوات البرية والبحرية سيكون أفضل شخص لهذه الحملة" [٢٢].

ثم يتناول سيناريو العمليات المحتمل:

"عند وصول الأسطول إلى سواحل مصر يتم فى البداية الاستيلاء على الإسكندرية وتحصينها؛ إن السيطرة على هذا المكان الخالى من أية تحصينات قد يكون أسهل مما نعتقد، فى المرحلة الحالية أنظر إلى غزو مصر وكأنه أمر واقع بشرط عدم الدخول فى الأراضى باستخفاف، فلنلزم التروى والحيطة .. ولن يستطيع المصريون الحصول على المساعدات الخارجية؛ ومن ثم سيكونون وحدهم أو بالأحرى لن تجد الحكومة إلا جيوش العثمانيين والمماليك أو العبيد لأن المصريين لا يكترثون بالخضوع لنير قوة أجنبية أو البقاء خاضعين تحت وطأة طغيان البكوات والعثمانيين.

وبعد السيطرة على الإسكندرية يجب أن تجذب كل من القاهرة والسويس أنظار القائد؛ أيتعين الهجوم عليها براً أم انتظار فيضان النيل لركوب النهر بفرقاطات صغيرة وزوارق وسفن شراعية كبيرة وصغيرة؟ إنها نقطة لا يمكن أخذ قرار بشأنها، ولا يمكن القطع فيها إلا بعد الحصول على معلومات محلية قبل الشروع فى أى شىء .. وأعلم أن القاهرة ليس بها أية دفاعات وكذلك الحال بالنسبة للسويس وكل مدن مصر، وأعتقد أنه يتعين بناء قلعة لاحتواء القاهرة وأخرى فى السويس لحماية الترسانة التى ستقام على البحر الأحمر، أما بالنسبة لمصر العليا فسيكون هناك دائمًا وقت للاستيلاء عليها وذلك بإقامة بضعة متاريس تباعًا على النيل من مسافة إلى أخرى.

وستكون هناك آفة يجب الحذر منها وهى الطاعون، وسيكون على القائد أن يتوخى أعلى درجات الحذر لحماية جيوشه، وبعد تكوين

منشآتنا سيكون من السهل القضاء على العدوى فى مصر عن طريق إقامة حجر صحى على سواحل البحر المتوسط وعلى حدود النوبة.

وسوف يكون نجاح هذه العملية ناقصًا إلا إذا دعمت بحملة أكبر، ولكنها يجب أن تؤكد على المزايا المترتبة على غزو مصر، ولنركز على خريطة البحر الأحمر، فمن الشمال يمس البحر مصر عن طريق السويس، ومن الجنوب يتصل بالمحيط عن طريق مضيق باب المندب، وهذا الممر جد ضيق ونجد فى وسطه جزيرة محون Mehun التى يبدو من المناسب السيطرة عليها، ولا نعرف إذا ما كانت هذه الجزيرة مأهولة بالسكان وإذا ما كانت ملكًا لبعض الأمراء العرب أو لملك اليمن، وسوف أتمكن بعد بعض الوقت إعطاء معلومات دقيقة عن هذه المنطقة يمكن عن طريقها تحديد الإجراءات اللازمة للسيطرة على هذا المجرى والتحصن به حتى لا يستطيع الإنجليز طردنا منه إذا كان - كما قيل - مفتاح البحر الأحمر والنقطة التى يجب أن تقدم لنا تجارة الهند والبلدان الواقعة على البحر الأحمر مثل مكة Make وجدة وموانئ أخرى للجزيرة العربية.

سيكون هذا هو الحد من جهة الهند (ومع ذلك أعتقد أنه يمكننا السيطرة عليه دون أية مخاطر)، ويجب أن تكون كريت الحد من جهة البحر المتوسط ويمكننا السيطرة عليها إذا ما دعت الحاجة ولكننى لا أعتقد ذلك .. وهذه الجزيرة إذا ما نظرنا إليها كمستعمرة تقدم مع ذلك ثروات وتجارة عظيمة، فمن حيث الموقع هى تحمى تجارة فرنسا مع مصر، وتضم الأرخبيل كله وتسيطر عليه. إن وضع بعض السفن الحربية فى موانيها وقيامها برحلات

على شواطئها سيجعل الملاحة فى مأمن من أى عدوان. ويتعين أن تكون الحملة على كريت تكملة للحملة على مصر إلا إذا أراد الإسبان القيام بها .. إن القوة التى ستستولى على سود Sude سيكون لها بعد قليل السيادة على الجزء الأكبر من الجزيرة ؛ وتلك هى النقطة الأساسية فيما نعتقد، ولكننى لا أملك شيئًا حول هذا الموضوع.

إن كل التفاصيل المتعلقة بالغزو مكتوبة بشكل موجز عام عن الحملة ولا يمكن أن تكون دقيقة أو قاطعة ويجب أن يقوم أناس أكثر دراية بتصحيحها ولاسيما المسئول الحربى الذى سيتم إرساله على أرض الواقع، ولن أكرر ذلك مرارًا، فهو إجراء احتياطى مبدئى ولا غنى عنه وسهولة الحفاظ على مصر لا يمكن أن تسبب مشكلة، فلا يمكن الهجوم عليها إلا عن طريق البحر المتوسط وستوفر بعض التحصينات التى تتم إقامتها حماية لها من هذا الجانب، ولا يمكن أن تخشى مصر أى هجوم من جهة النوبة، صحراء مملكة طرابلس التى نجدها قبل بلوغ جبال فلسطين تشكل حواجز تفصلها عن باقى العالم، وعلى أية حال عندما يصبح الفرنسيون سادة النيل سيقومون بإنشاء خط دفاعى. ويجب التوقع بأنه بعد بضع سنوات عندما يتم تأسيس كل المنشآت اللازمة، فإن فرقة من ٨ آلاف إلى عشرة آلاف فرنسى ستكون أكثر من كافية لحماية كل المملكة والحفاظ على النظام بها، وفى الواقع يتعين تغييرهم كل سبع إلى ثمان سنوات لتفادى آثار المناخ إذا ما أثبت أنه يضر بهم ويجعل منهم رجالاً متخنثين لا يسعون إلا إلى ملذاتهم، ومما لا شك فيه أن فى هذه الحالة سيكون من الممكن فى تلك الفترة تكوين ميلشيا من بين

نصارى البلاد وممن سيأتون للعيش فيها من فلسطين وسوريا، وسوف يتم استخدامهم بطريقة نافعة فى الشرطة وحتى ضد العرب إذا ما حاولوا التدخل فى مصر ضد رغبة الفرنسيين. ويتعين سن قوانين بسيطة تتلاءم مع تقاليد مختلف سكان مصر وتعيين حكومة عادلة وتعيين بعض الرتب والمكافآت لسكان مصر، مما يثبت لديهم الشعور بضمان ممتلكاتهم وأموالهم مما يربط هذه الشعوب بفرنسا بعد أن عانت لمدة قرون من أقصى أنواع الاستبداد، وستشكل الثروات التى تحصل عليها فرنسا من مصر المكافأة عن الحيز الذى تقدمه لسكانها بضمهم للأمة وبإزالة الأغلال التى قيدهم بها على التوالى العديد من المستبدين" (٢٣).

وبعد هذه التفاصيل التى أولى لها جيش بونابرت فيما بعد كل الاهتمام (٢٤)، قدم القديس ديديه الإجابة عن السؤال الثالث: "هل يعد غزو مصر ضرورة أم سيصبح كذلك؟".

هناك حافز أكثر قوة يجعل من غزو مصر ضرورة .. وأيًا كانت أحداث حرب الإنجليز فى مستعمراتهم، فيمكننا التنبؤ دون أى احتمال للخطأ بأننا نعيش لحظة انفصال تام أو أن هذه اللحظة لا يمكن تأجيلها إلا لبضع سنوات.

وسوف يكون من السعى إلى الإبقاء على مستعمراتنا فى حالة استقلال عن البلد الأصلى نوعًا من السياسة السليمة، ولكن علينا فى النهاية تأجيل ذلك بعض الوقت، وسيأتى اليوم الذى تدخل فيه المستعمرات الإنجليزية فى اتحاد، وقد تعارض فرنسا دون جدوى لأن النتيجة ستكون إبعاد مستعمراتها عنها إلى الأبد وكذلك المستعمرات الأنجلو أمريكية، وسيكون من مصلحتها

إعلان حريتها والاستفادة من هذه المجاملة المفروضة عليها لتوقيع معاهدات تجارية ذات مزايا بالاستفادة بمهارة من الكراهية التى ستبقى طويلاً بعد الانفصال بين إنجلترا ومستعمراتها. إن المزايا التى يمكن الحصول عليها إذا ما تم التفاوض عليها من جانب خبير ماهر قد تعوضنا عن خسارة مستعمراتنا .. ولكن كم من الوقت يجب أن تظل فرنسا تفخر بنفسها لتوقعها هذه الثورة وأنها ظلت تحافظ على مستعمرة غنية أمامها أو بالأحرى تحت أعينها يمكن أن توفر لنا السكر والنيلة وغالبية منتجات أمريكا" [٢٥].

ويضيف القديس ديدييه:

ومع ذلك فإن مشروع غزو مصر سيظل غير مقبول فى ظل الظروف الحالية، وقد نهتم به يومًا، ومن هذا المنظور أعتقد أنه يتعين الاقتراح على الملك اختيار البارون دى توت لتفقد مراكز الشرق التجارية وهو أمر أوضحنا أهميته للملك، والحق أن مواهب البارون ودرجته تؤهله لهذه المهمة. وعلينا إضافة بند سرى إلى تعليمات السيد توت العامة لتكليفه بدراسة إمكانية غزو مصر وأكثر المواقع الملائمة لنزول القوات وقوات البلاد والقوات التى يجب أن تستخدمها فرنسا فى هذه الحملة .. وسوف يطلب إليه رفع خرائط المدن الساحلية ودمج وسائل الهجوم والدفاع ، أى بإيجاز الأوامر التى يجب إصدارها لغزو مصر والحفاظ عليها وحكمها. وبالإضافة لمعارفه فى مجال التجارة يجمع السيد توت مواهب مهندس المساحة والمهندس البحرى ومواهب ضابط المدفعية ويعرف لغة البلاد ولذا فإنه الوحيد الذى يمكن أن يؤدى مهمة بهذه الحساسية .. ويمكن للبارون البدء بمصر والعودة بعد

ذلك إلى فرنسا لتقديم تقرير عن عملياته وتسليم خططه ومشاريعه التى يمكن استخدامها إذا ما دعت الظروف، وقد يطلب إليه استكمال جولته فى باقى مراكز الشرق التجارية، إذا ما رأينا عدم اتخاذ أية محاولة فى هذا الشأن.

ويتعين علىّ التوقف، فهذه المذكرة جد طويلة، وأشعر بأننى تركت نفسى للحماسة ولكن يجب أن يكون هناك حدود؛ ولكن هذه المذكرة ستشكل تبريرى أمام الوزراء الذين سيقدرون دوافعى ويلتمسون العذر لقلمى الذى لم يدرب على تناول موضوعات بهذه الأهمية.

وقد قدمت أفكارى وآرائى وسوف يكون من دواعى سعادتى أن تنال موافقة الوزير، وإذا كنت لم أر الأمور بوضوح أو أسأت مزج الأمور وإذا كنت قد أسرفت، فيتعين أن آمل أيضًا فى ضرورة تأويل هذا العمل بصورة دقيقة وقد أعددته بعجالة دليلاً على حبى للخير ورغبتى فى أن أكون نافعًا" (٢٦).

والمؤكد أن شبح ليبنتز كان يبتسم لنجاحه فى فرض مخطوط غزو مصر على وزراء حكومة لويس السادس عشر وسفرائها وكبار موظفيها وخبرائها.

ياله من تجانس واستمرارية لفكرة الغزو نفسها فى عقل كل هؤلاء الرجال العظام! فمنذ أعرب بونبون عن رفضه فى ١٦٧٢ لليبنتز، سارت الأمور كلها ببطء ولكن بطريقة أكيدة نحو القيام بالحملة.

وفى الأسابيع التالية تم إرسال توت إلى مصر وإلى البحر الأحمر فى مهمة سرية لدراسة وسائل الغزو بناء على توصيات القديس ديدييه.

ويعزو فرانسوا شارل رو عدم وجود أية وثائق مكتوبة فى أرشيفات فرنسا إلى النزاع الخفى بين السيد سارتين Sartine وزير البحرية ومعارضة فيرجان المتعنتة.

أصدر سارتين فى هذا الشأن لفيرجان تعليمات شفوية صريحة وقاطعة على الرغم من استمرار معارضة الأخير لأى فكرة لغزو الشرق والتخلى عن تركيا واعتراضه على مجرد إعداد دراسة سرية عن مثل هذا المشروع. وكانت معارضة وزير الخارجية هى السبب فى كون التعليمات المكتوبة التى صدرت لتوت حول مهمته السرية لم تتضمن تحديد موضوع المهمة الحقيقية، فهذه التعليمات – إذا جاز التعبير – تذيبه فى تفويض لإجراء تحقيق أكثر عمومية مع توصية البارون باتخاذ أقصى درجات الحيطة للحفاظ على سر تحقيقاته الحقيقية" [٢٧].

إن إلحاح فكرة "السرية" يمكن أن يشكل مع ذلك السبب الثانى، فقد اتفق الجميع – وفقًا لاقتراحات القديس ديديه – على أن السرية تعد الورقة الرابحة لكل مشروع الغزو.

"كان أكبر اهتمام لنا يتعلق بالحفاظ على سرية المهمة وكذلك بالتصرف بلباقة حيال فيرجان المناهض للمشروع، وقد بلغ هذا الاهتمام الحد بأن تقريرًا أعد للملك فى أكتوبر ١٧٧٦ لقراءته فى المجلس لم يكن يشير على الإطلاق إلى مصر، واقترح مع ذلك تكليف البارون توت بمهمة ذات طابع سياسى وعسكرى فى نفس وقت تفتيشه العام على مراكز الشرق التجارية، ومع ذلك ففى الوقت الذى أعد فيه التقرير كان وزير البحرية قد حدد آراءه بالنسبة للدولة التى يتعين جمع المعلومات عنها بصفة خاصة فى الشرق" [٢٨].

وتجدر الإشارة إلى أن لويس السادس عشر كان قد عرف كل شيء عن المشروع، وتُظهر تعليمات وزير البحرية الاهتمام الذى يوليه الملك لمهمة توت.. ولكن ما نوعية هذا الاهتمام؟ فلم يكن من الممكن عدم إطلاع البارون على سر القديس بريست Saint - Priest ذلك السفير النشط لشوازيل فى اسطنبول الذى حافظ على وظيفته رغم كل المشكلات

والصعوبات بعد وفاة لويس الخامس عشر والذى غذى - كما رأينا - منذ بعثته فى قلب الإمبراطورية التركية مشروع الغزو ذاك بألف حلم وخيال ضد رغبة وزيره نفسه.

ويبدو أن البارون توت قد تحدث هو أيضًا صراحة عن مهمته للقديس بريست، فوجه له من ثم سارتين مذكرة تشتمل على صورة - مباشرة أو غير مباشرة - لطبيعة مهمته وكل العاملين المعينين قيد تصرفه وتحدد أن الملك قد أخطر بالموضوع برمته.

> "يشرفنى أن أخطر سيادتكم بالثقة التى منحها صاحب السمو للبارون دى توت (عند تفتيشه العام لمراكز الشرق التجارية)؛ وبمعزل عن الموضوعات الخاصة والسرية المكلف بها والتى لن أتحدث معك عنها إلا عندما أسعد برؤيتك، فسوف يوصى له بتنفيذ التعليمات الخاصة بقناصل الشرق.
>
> ويتعين علىّ إبلاغك سيدى أن الملك مهتم شخصيًا بنجاح المهمة المنوطة بالبارون دى توت وسيكون شاكرًا لكل من يعاونه، وأطلب إليك إبلاغ ذلك عنى إلى ضباط أركان حربكم .. ويجب أن يرافق السيد أميه دى لالون Amé de la laune الملازم فى البحرية البارون دى توت برًا، وعندما يحتاج هذا المفتش إلى بعض ضباط البحرية لفحص الشواطئ والقيام بأبحاث عن التاريخ الطبيعى أو أية تجارب أخرى يقدم له البارون دى دوفور Dufort سفن التجديف اللازمة ويضع على متنها بطريقة أولية السيد دى لالون الذى تلقى فى هذا الشأن تعليمات من وزير الدولة للشئون البحرية، وسوف يوصى البارون دى دوفور من ضباط أركان حربه بالتحفظ التام ولن يضيق إذا ما تحدثوا بلا تروٍ عن عمليات البارون دى توت البحرية أو البرية بصفة خاصة. ولن يتردد صاحب السمو فى معاقبة من يخالف أوامره حول هذه النقطة ويتعين على البارون دوفور بلا شك أن يشعر بأهمية أن يسهر

على حفظ الطابع السرى وبصفة خاصة عدم تسريب تعليماته لضباط أركان حربه، فيجب أن تظل سرية حتى بعد نهاية حملته ولا يطلع عليها سوى البارون دى توت" (٢٩).

واصطحب توت معه مترجمًا وهو فنتور دى بارادى (Venture de Paradis وهو الفرنسى الوحيد الذى عاد إلى مصر مع بونابرت) وأمين سر هو كليرك دى رانوفال Clerc de Rayneval ورسام خرائط هو آميه دى لالون وهو شقيق القديس ديدييه وأحد أنصار مشروع ليبنتز .. وأبحر توت من ميناء تولون Toulon فى ٢٦ أبريل ١٧٧٧ دون أن يدرى أن وزير بحريته الخبيث قد أرسل بالفعل إلى المواقع فى ٦ سبتمبر ١٧٧٦ الفارس مونتينى Montigny .

وغادر توت القاهرة فى ربيع ١٧٧٧ ومعه الخرائط والرسومات المخصصة لغزو محتمل ووصل إلى الإسكندرية فى يوليو .. والحق أن المراسلات المتعلقة بحالة مصر فى نهاية القرن الثامن عشر والتى تبادلها البارون ووزير البحرية كانت غاية فى الثراء حيث وصف البارون دفاعات البلاد وتحصيناتها وجيوشها ومماليكها وميليشياتها الإنكشارية والعلاقات السياسية بين البكوات والقناصل وموقف الشعب .. إلخ.

وعندما عاد إلى فرنسا فى يوليو ١٧٧٨ حرر تقريرًا مذهلاً حول مهمته تحت عنوان: "تقرير عن مهمة البارون توت السرية" ونسختها الموجودة بالأرشيفات القومية بتاريخ ١٧٧٩ وجزء كبير من هذا التقرير مخصص لغزو مصر وسبل تنفيذه وطرق الاستفادة القصوى منه، وذلك إلى جانب موارد البلاد الطبيعية. والحق أن السيناريو العسكرى هو الذى يثير اهتمامنا؛ فلم يغفل المدرب العسكرى السابق للجيش التركى خلال حرب كريميه أى تفصيل أو أى حصن وقدم بعض خطط المعارك لتأكيد المعلومات.

ولكن لماذا لم تخطر حكومة لويس السادس عشر وزارة الدفاع بكل هذه التحركات؟ لقد ظل السؤال دون أية إجابات .. فربما كان الطابع السرى لمهمة توت هو السبب الرئيسى، ولكن هناك اعتبارات أخرى ذات طبيعة سياسية خالصة هى التى أثنت لويس السادس عشر عن الموافقة على هذا المشروع.

بداية هناك معارضة فيرجان الشرسة الذى نجح فى فرض وجهة نظره المتعلقة بالإبقاء بأى ثمن على الإمبراطورية العثمانية وعدم التسبب فى سقوطها عن طريق القيام بغزوات تضر بتكاملها السياسى، ويقول فرانسوا شارل رو:

"إنه العام الذى سلم توت فى فرساى تقريره عن مهمته السرية، وبذل فيرجان قصارى جهده للحفاظ على الإمبراطورية مقابل تضحية على حساب كرامة الأتراك والسلام بينهم وبين الروس. ويظهر هذا الحدث إلى أى درجة كان فيرجان يعارض فكرة إثارة أزمة فى الشرق، وكان لا يريد ذلك ولاسيما أن فرنسا كانت فى حالة حرب ضد إنجلترا لتحرير المستعمرات البريطانية التى كونت فيما بعد الولايات المتحدة الأمريكية، وكانت سياسته - أى فى نهاية المطاف سياسة لويس السادس عشر - لا تتفق إطلاقًا على أى تقديم لموعد هذه الثورة الشرقية والذى كان يرفض الاعتقاد بأنها واقعة لا محالة وفقًا لكل التنبؤات. ولم يكن العمل الذى أنجزه توت حول غزو مصر بالنسبة لفيرجان (وبالتالى بالنسبة لكل زملائه فى وزارة البحرية والحرب) سوى دراسة يحتفظ بها ليوم غير محدد يمكن أن تقود الأحداث إلى الرجوع إليها" (٢٠).

وجاء هذا اليوم بعد تسعة عشر عامًا فى ربيع ١٧٩٨ حيث تم دراسة مشروع غزو مصر فى مجلس بحضور بونابرت وتاليران Talleyrand وأعضاء حكومة المديرين، وفى ذلك اليوم تم دراسة كل الوثائق المتعلقة بالموضوع اعتبارًا من ملف ليبنتز وحتى تقرير البارون توت، والغريب أن ثمة موضوعًا أغفلته معظم التقارير وهو: مكانة الإسلام ومحمد فى قلب وفكر المصريين. أما نابليون نفسه فكان يفكر فى هذا الموضوع منذ فترة، فتحديدًا منذ أن قرأ عمل فولتير Voltaire "محمد Mohamet" ومنذ أن حدثه صديقه فولنى عن هذا العمل لم تكن مكانة النبى فى ذهنه تعادل سوى مكانة الإسكندر الأكبر .. والغريب أنه فى الوقت الذى كان يجهز نفسه للقائه فى القاهرة كان النبى شخصية يثار عنها الكثير فى باريس.

الهوامش

(1) Régis Blachère, Introduction au Caron, Paris, Maisonneuve et Larose, 1991, p. 267.

(٢) وزير فيليب شونبورن، حاكم ماينس.

(3) Leibniz, Consilium Aegyptiacum, Manuscrit en latin et sa traduction de A. Vallet de Virville en 1842, Bibliothèque de l'Institut de France, p. 6.

(4) Leibniz, op. Cit., p. 9 - 10.

(5) Ibid., p. 11.

(٦) ملحوظة – فيرفيل: فى عام ١٧٩٨ عبرت الحملة على مصر بناء على أوامر بونابرت البحر المتوسط فى ثلاثة وثلاثين يومًا وسيطرت على مالطة فى الطريق، وتقطع اليوم السفن البخارية الطريق فى خمسة عشر يومًا. "وتوفر – مالطة – التابعة لفرنسا محطة آمنة، وهناك أيضًا لامبيدوز (Lampedouse" – الببنتز – المصدر السابق ص ١٢ – ١٣).

(7) Leibniz, op. Cit., p. 30.

(8) Pour plus de détails, voir Ahmed Youssef, la Fascination de l'Egypte, du rève au projet, Paris, l'Harmattan, p. 39 - 40.

(٩) ثلاث طبعات متتالية خلال عام ١٧٣٥ فقط.

(١٠) وهو النجاح الذى لاحظه فولتير وأثار إعجابه فيقول عن ماييه: "قنصلنا ماييه، لا قنصل روما يعرف تمامًا ماذا كان فى البداية الإنسان الأول!".

(١١) من ١٧٥٨ حتى ١٧٦١ .

(١٢) من ١٧٦٦ حتى ١٧٧٠ .

(١٣) من ١٧٦١ حتى ١٧٦٦ .

(١٤) من ١٧٦٥ حتى ١٧٦٣ .

(١٥) كان فرنسوا شارل رو مؤرخًا ودبلوماسيًا خلال خمسة وأربعين عامًا وقد تقلد منصب نائب رئيس قناة السويس فى الفترة من ١٨٩٨ إلى ١٩١٩، وهذا الأكاديمى هو والد أدموند شارل رو ومؤلف العديد من الأعمال عن تاريخ فرنسا والشرق بصفة عامة. وفى عام ١٩٤٤ أصبح آخر رؤساء شركة السويس قبل تأميمها عام ١٩٥٦ .

(16) Ahmed Youssef, La Fascination de l'Egypte, op. Cit., p. 41.

(17) François Charles-Roux, Le projet français de la conquête de l'Egypte sous le règue de Louis XVI, le Caire, IFAO, 1929, p. 15-16.

(18) Idem.

(19) François Charles-Roux, op. Cit., p. 20.

(20) François Charles-Roux, Mémoires présentés à l'Institut d'Egypte et publiés sous les auspices de sa Majesté Fouad 1er, roi d'Egypte, tome XIV, Le Caire, Imprimerie de l'IFAO, 1929, p. 23-25.

(21) Ibid., p. 28-29.

(22) Ibid., p. 32.

(23) Ibid., p. 32 - 33.

(24) Ibid., p. 34 - 35.

(٢٥) ولكن كان هناك فارق فى العدد. فبينما اقترح القديس ديديه إرسال ما بين سبعة إلى ثمانية آلاف جندى، أصطحب نابليون أربعة أمثال هذا العدد.

(26) François Charles - Roux, op. Cit., p. 39.

(27) Ibid., p. 39-40.

(28) Ibid., p. 40 - 41.

(29) Ibid., p. 43.

(30) Ibid., p. 45.

الفصل الثانى

عن النبى محمد وعن مصر كما رآها سافارى

وفولنى رجلا الأدب اللذان ألهما بونابرت

"من الممكن دائمًا أن نجد رواد، بيد أن الاستشراق الحقيقى نشأ فى النصف الأول من القرن السابع عشر" (١).

بعد ثلاثين عامًا من البحث والدراسة نشر ديربولو d'Herbolot عام ١٦٩٧ الموسوعة الحقيقية الأولى عن الإسلام وهى "المكتبة المشرقية"، وهذا يعنى أن ليبنتز كان قد قدم مذكرته لغزو مصر إلى لويس الرابع عشر بينما كان ديربولو يعمل بالفعل على تعميق معارف الغرب عن الإسلام وحضارته ونبيه.

وفى رائعته "الأصول الفكرية لحملة مصر" يحلل هنرى لويس Henry Lourens بطريقة منهجية الإنتاج العلمى الفرنسى الخاص بالشرق والإسلام ويؤكد على صحوة قوية للاهتمام بهذه المنطقة وهذا الدين، ويشير إلى أمرين خطرين: الطابع التأريخى الرسمى الخالص للاستشراق الفرنسى والتمييز الواضح والجديد بين الفضاء الثقافى العثمانى والحيز الثقافى العربى (٢).

وفى هذه الفترة حول عام ١٧٦٩ – وهو العام الذى ولد فيه بونابرت – ظهر فى فرنسا الاهتمام بشخصية محمد، فدفع فولتير – الذى أسهم بطريقة بدهية فى هذا الاهتمام – كل مفكرى عصره إلى التفكير فى هذا الأمر بدورهم، وأثرت هذه الحالة الفكرية بالتأكيد على شخصية بونابرت.

ومن تاريخ نشر "المكتبة الشرقية" عام ١٦٩٧ وحتى ترجمة جالان Galland لألف ليلة وليلة عام ١٧٢٧ حدث نوع من الانتقال من الشعور بالتهديد التركى على الغرب المسيحى الذى يرجع إلى ثلاثة قرون إلى ولع بحضارة الإسلام، وقد تحولت صورة النبى تحولاً كبيراً بعد دراسة المستشرقين لها وتفسيرها وتعميمها، فلم يعد هذا "الأفاق" و"الكذاب" الذى وصفه مناظرو ومصنفو نخب العصور الوسطى [٣]، ولكنه رجلٌ بدأ من لا شئ ووصل إلى بناء إمبراطورية ودين عظيم.

ولفهم هذا التغيير الجذرى يتعين علينا معرفة رأى هنرى لورنس الذى يقول:

"لا تزال الشخصية شخصية "الأفاق" ولكن بدلاً من أن تكون للشخص القليل الذكاء والغشاش الذى كان يقدم فيما قبل، أصبح الأمر يتعلق الآن بعقلية راقية، تتبع خطة معدة سلفًا تهدف إلى تحول جذرى لضمان سيطرة العرب على العالم ومزج الديانات فيما بينها، إنها شخصية مستعدة لبلوغ غاياتها استخدام كل الوسائل الممكنة؛ فهو فوق كل القواعد الأخلاقية .. وقد أصبح جذابًا وساحرًا ولكن ظل فى الوقت ذاته شيطانيًا .. والحق أن بناء هذه الأسطورة الجديدة عن محمد تم بصورة خاصة فى النصف الثانى من القرن .. وتحول إلى شبح يلح على الضمير الغربى والعبقرية التى تعلو على كل الأخلاق" [٤].

وهناك جانب خاص للنبى كان يجذب الانتباه ويثير الإعجاب بمواهبه "كمشرع". ففى ذلك الوقت كانت الثورة الفرنسية على وشك الاندلاع وكانت أوربا تبحث عن سبل سياسية واجتماعية جديدة للسماح للشعوب للوصول بصورة جماعية إلى "العصور

الحديثة" .. واقتبس المفكرون وفلاسفة عصر التنوير من مثل هذه الأمثلة التاريخية. وكذلك الحال بالنسبة للعملية التى تثبت أن الشعوب القاهرة تنتهى دائمًا بأن يقهرها من قهرته مثلما حدث بالنسبة للغزوات الألمانية فى أوربا والمغولية فى فضاء الإسلام، إلخ ..

وسريعًا ما استبعد عصر التنوير العرب من هذا المنطق التاريخى بالرغم من إعجابهم بهذا الشعب، فبعد أن امتص الفاتحون العرب الشعوب التى سيطروا عليها، انتهوا ببناء إمبراطورية شاسعة تحدث عنها فولتير فى "دراسة عن العادات" Essai sur les moeurs قائلاً:

"فى ذلك الوقت لم يكن العرب المسلمون يريدون من العلوم سوى القرآن، ولكنهم كانوا يحاولون إظهار أن عبقريتهم تمتد إلى كل المجالات. فقد كان مشروع تجديد القناة القديمة فى مصر تلك التى حفرها الملوك والتى أعاد تراجان Trajan حفرها والربط مرة أخرى بين النيل والبحر الأحمر هو عمل جدير بأكثر العصور تقدمًا، وقد قام حاكم مصرى بتنفيذ هذا العمل فى ظل خلافة عمر وأتمه .. هناك فارق كبير بين عبقرية العرب وعبقرية الأتراك، فقد ترك هؤلاء الأخيرون هذا العمل ليموت وكان الحفاظ عليه أفضل من غزو مقاطعة كبيرة" (٥).

ويقدم هنرى لورنس قائمة بالكتب التى نشرت فى فرنسا خلال هذه الفترة السابقة على الثورة:

"إن العرب الغازين يتصرفون من ثم وكأنهم بناة إمبراطوريات أوروبيين. فبعد الغزو مباشرة تحين مرحلة الاستغلال التى تقوم أساسًا على إنشاء بنية تحتية للنقل .. إن عربى القرون الأولى يشبه بسمات كثيرة الأوروبى الغازى، وهذا التماثل لا يقتصر فقط على الممارسة العملية ولكن أيضًا على البحث العلمى".

وفضلاً عن سمة "المشروع" لشخصية النبى التى أدهشت مفكرى القرن الثامن عشر، شكل "استبداده المستنير" بالنسبة لهم مادة نقاش واسع أثرت جدلهم وصالوناتهم لفترة طويلة.

وفى الواقع سيطر موضوع الاستبداد المستنير الشرقى خلال القرن الثامن عشر على كتابات مونتسكيو وآرائه منذ نشره فى عام ١٧٤٨ لمؤلفه "روح القوانين" L'Esprit des lois .. والأمر يتعلق أساسًا بدراسة تأثير المناخ على مزاج الشعوب [٦]. ويرى كتاب القرن الثامن عشر أن الاستبداد الشرقى كان السبب الرئيسى للثورات وتعدد الزوجات والعبودية ، إلخ ، وهو مع ذلك يلعب دور الضامن لملكية القانون الإلهى أو الوضعى وتطبيقه.

ورغم كل الكتابات عن محمد، فإن كتابات فولتير هى التى أثارت ولع القراء وأثرت عليهم ؛ ومرد ذلك إلى أن شهرة المؤلف وتعدد إصداراته هى التى صنعت "الأعمال عن محمد" l'oeuvre sur Mohamet، حتى وإن لم تكن مطابقة للصورة الجديدة للإسلام ورسوله.

وفى الواقع يتحدث فولتير عن الرسول comme d'un homme au machiavélisme كما لو كان يتحدث عن شخصية ميكافيلية × إلى أبعد حد، وكان مؤلف كنديد يريد بصفة أساسية من وراء ذلك شن هجوم على الكنيسة ورجال الدين باستخدام الرسول لبلوغ أهدافه، وفى "دراسة عن العادات" Essai sur les moeurs يسند له دور المشرع ومؤسس الإمبراطورية.

وهناك نجمان يقعان حول الكوكب فولتير جعلا من محمد وديانته قوتهما الضاربة واكتسبا بفضله شهرة واسعة؛ إنهما سافارى Savary وفولنى .. Volney ويعكس كلاهما تناقضات صورة فولتير وقد لعبا دورًا حاسمًا فى نقل المساجلة الفلسفية الخالصة نحو تنفيذ مشروع غزو مصر.

وهكذا فإن إعجاب بونابرت بمحمد نشأ أساسًا من تأثير كتابات فولتير ونجميه اللذين خرجا من مداره: سافارى وفولنى.

ولننظر إلى بعض جوانب المفهوم المحمدى عند فولتير؛ فخلال حياة فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨)، شهد كتاب "وصف مصر" للقنصل مايية الذى نشر فى ١٧٣٥ نجاحًا مدويًا، فقد أصبحت بالفعل المعلومات التى اكتسبها الفرنسيون نحو منتصف القرن الثامن عشر عن مصر أكبر دقة ..

ويلاحظ جان مارى كاريه Jean Marie Carré إنه تم الاستدلال على آثار مصر القديمة، ويقدم لنا المؤلف الشهير للكتاب الأساسى فى هذا السياق "رحالة وكتاب فرنسيين فى مصر" كشف حساب عن معارفنا عشية وصول سافارى وفولنى، وبضعة سنوات قبل وصول البعثة العلمية لفنون حملة بونابرت:

"إننى لا أتحدث بصورة طبيعية عن عامود السوارى وحمامات كليوباترا بالإسكندرية ومسلة هليوبلس بالمطرية التى يخصص لها كل الرحالة منذ القرن السادس عشر بحماس إجبارى بعض الصفحات. ولكن الأب فنسلب Vansleb والأب سيكار Sicard أشارا ووصفا آثار من العصر البطلمى أو الرومانى لمصر الوسطى اختفت اليوم تمامًا مثل باب أشمونين وقوس نصر شيخ عبادة، أما عن مصر العليا فترسم صورتها تباعًا: فيقدم لنا بول لوكاس Paul Lucas دندرة وأرمنت، ويقدم لنا الكابوسيان بروتيه Protais وفرنسوا François واليسوعى سيكار وبصفة خاصة الأجانب بوكوك Pocoke ونوردن Norden الكرنك ووادى الملوك.

أما معبدى أبيدوس وأدفو فلم يزرهما أحد، وأشار جرنجيه Granger إليهما بإيجاز عام ١٧٣١ فقط، وكان معبد أبيدوس بعيدًا عن ضفاف النيل ومغطى تمامًا بالرمال؛ وكان من الممكن رؤية معبد أدفو من فوق ضفة النيل فقط وذلك لتحوله إلى قلعة تركية أو لغزو المدينة الأصلية له .. ولم يؤخذ أيا من هذين المعبدين فى الاعتبار قبل حملة بونابرت ..

وكان الجهل باللغة الهيروغليفية هو السبب فى العديد من الأخطاء فى التعرف على المعابد وتحديد عصور إنشائها" (٧).

بيد أن اختلاف الثقافات غالبًا ما يحرف رؤية هؤلاء المكتشفين الفرنسيين وحكمهم إذ كانوا معتادين على التقليد الأكاديمى فى زمن حكم لويس الرابع عشر.

وسريعًا ما رأينا ذلك فى وصفهم لمصر القديمة ولاسيما فى معرفتهم لمصر العربية والإسلامية:

"تعيش مصر فترة انهيار فنى وسياسى، ولا يبدو فيها الأرقام لمجدها القديم هنا وهناك تحت وطأة التسطيح العنيف للاستعمار التركى، ثم يظل الفن العربى غريبًا بصفة خاصة على عقول صنعتها التقاليد التقليدية والمسيحية لأوربا الشرقية، وأخيرًا أين يمكن اكتشاف هذا الفن سوى فى الأحياء الإسلامية الشديدة الانطواء على نفسها والمغلقة إزاء تطفل الفرنجة .. وكيف يمكن النفاذ إلى المساجد والمقابر والأماكن المقدسة التى هى من جانب أخر بالنسبة لنا نحن المبشرين الكاثوليك كمحاريب للكفر وقلوع للخطأ؟ فعلينا ألا نتوقع أن نجد اكتشافات عن العمارة العربية بقلم رحالتنا المسيحيين" (٨).

وكان يتعين وضع خريطة للبلاد مما كان يتطلب معلومات دقيقة قدمها بعد ذلك تدريجيًا هؤلاء الرحالة والمستكشفون والقناصل .. وقام الجغرافى الشهير جى. بى بورجيينون دانفيل J. B. Bourgignon d'Anville (1690 - 1782) برسم أول خريطة لمصر، وكان الرجل قد نشر فى عام ١٧٦٦ بحثًا عن مصر القديمة والحديثة دون أن تطأ قدمه البلاد، ورسم خرائطه اعتبارًا من المراجع الضخمة وكتابات رحالة العصور القديمة ولاسيما سترابون Strabon وديودور دى سيسيل Diodore de Sicile وأميان مارسيلان Ammien Marcelin وكذلك وصف كبار رحالة زمنه مثل جرنجيه Granger والأب ريكار Ricard .

ويكتب لنا جان مارى كاريه طرفة غاية فى اللطف ومليئة بالمعانى:

"ذات يوم بعد أن أصبح الجنرال مينو حاكم بيمون Piémont طلب من ضيوفه بعد العشاء مقارنة خريطة دانفيل D'Anville بالخرائط التى وجدها فى البلاد مهندسو حملة بونابرت، وكان من نتيجة هذه المقارنة أن وجدوا تطابقًا تامًا بين العملين فيما يتعلق بكل النقاط التى لم تسبب مياه النيل فيها أضرار. ويقال أن دانفيل ربما يكون قد سافر؟ - دون أدنى شك؛ ففى خلال مدة عمله التى استمرت أربعة وعشرين عامًا قام برحلة واحدة من باريس إلى سواسون Soissons" (٩).

وقد أفاد سفارى وفولنى قبل بونابرت إفادة عظيمة من هذه الخرائط والرسومات والكتابات.

كلود إيتيان سفارى Claude Etienne Savary (١٧٥٠ - ١٧٨٨) :

تشير الملحمة القصيرة التى كتبها كلود إيتيان سفارى Claude Etienne Savary (مترجم القرآن) إلى هذا الانتقال بين الإسلام ورسوله من جانب ومصر من الجانب الآخر، وقد كانت هذه الملحمة قصيرة بالفعل بما أن بطلنا لقى حتفه من شدة الإعياء وهو فى الثامنة والثلاثين من عمره.

وكان عمره سبعة وعشرين عامًا عندما نزل إلى الإسكندرية ليخطر بالنبأ الرهيب الخاص بمقتل قنصل فرنسا، فالحق أن الوجود الفرنسى فى الإسكندرية كان قد انخفض بصورة ملحوظة بسبب الإهانات التى كان يتسبب فيها المماليك للتجار الفرنسيين نتيجة تدهور الوضع السياسى بصورة عامة فى مصر منذ عصيان على بك الذى حاول القضاء على نير السلطة العثمانية (١٠).

ومع ذلك كان الشاب سفارى الملىء بالأمل والثورة مصمماً على ألا يكشف سوى عن جمال البلاد الخفى والذى كان واثقًا من وجوده، ومن الإسكندرية توجه إلى رشيد التى ترك لنا وصفًا رومانسيًا عن حدائقها:

"فهذه الحديقة الشاسعة حيث لا تكف الأرض عن الإنتاج تقدم كل عام حصاد وخضراوات وفاكهة، وهذا التنوع الوفير يسعد القلب والعين معًا" (١١).

وما الذى يمكن عمله عند ارتفاع درجة حرارة هذه الأقطار؟ يقدم لنا سفارى الإجابة التالية:

"فى شمالى المدينة نجد حدائق بها أشجار الليمون والبرتقال والنخل والجميز مزروعة بطريقة عشوائية، وهذه الفوضى ليست جميلة ولكن اختلاط هذه الأشجار وتشابك غصونها التى تعجز أشعة الشمس عن اختراقها، والورود الملقاة هنا وهناك فى هذه الغيضات تجعل الظل ساحرًا عندما تبلغ حرارة الجو ذروتها ويسيل العرق من كل الأعضاء ويحن الشخص الناهج إلى الهواء المنعش كما يحن العليل إلى استرداد عافيته، ولذا يشعر بسحر خاص عندما يتنفس تحت هذه المهود على شاطئ الجدول الذى يسقيها"(١٢).

ويلى ذلك الفقرة الضرورية عن النسوة اللاتى من الواضح أن سفارى مستعد لأن يعيش معهن مغامرات عاطفية:

"فى الحدائق تأتى الشابات من جورجيا اللاتى باعها أهلهن المتوحشون كجوارى لتخلعن مع خمرهن اللياقة التى يتظاهرن بها أمام الناس وبعد التخلص من كل القيود تقمن بالرقص الشهوانى وغناء ألحان حانية ويسردن القصص التى تعد وصفًا سانجًا لعادتهن وملذاتهن" (١٣).

ويروى لنا سفارى المغامرة اللطيفة لجميلة Gémile الجورجية زوجة العجوز التركى حسن والتى وقعت بجنون فى غرام الشاب الأوروبى، ويمكن أن تعد هذه الرواية انعكاسًا لقصص حبه المصرية .. وفى طريقه للقاهرة عن طريق النيل قدم لنا سفارى وصفًا خياليًا عن مزارع الدلتا الريفية التى يمر فيها النهر وحيث:

"تهاجم فتيات الهوى المارة" (١٤).

وبعد ذلك يرسم لنا سفارى المشهد المثير للفتيات وهن يستحممن:

"تنزل الفتيات من القرى لغسل الملابس وأخذ المياه، وتقوم جميعهن بالاستحمام وغسل القلل والملابس على الشاطئ، وتدعكن أجسادهن بطمى النيل وتتدافعن وتلعبن بين الأمواج (..) وتطفو ضفائرهن على أكتافهن، وأجسادهن داكنة اللون ولون بشرتهن مسمر وأغلبهن مكتملات النمو" (١٥).

وعند بلوغه القاهرة يرسم لنا مشهد رقصة العلمة معلنا بذلك بطريقة لا يمكن إنكارها رومانسية نرفال (١٦):

"ثوب طويل من الحرير الخفيف يغطى حتى الكعبين، وحزام ثرى يلتف حولهن بطراوة، وشعر طويل أسود مضفر ومعطر يطير على أكتفاههن، ويخفى قميص شفاف كالشاش بالكاد نهودهن، وبمجرد أن يتحركن تبدو أشكال وحدود أجسادهن وكأنها تنفصل بطريقة متتالية، وينظم صوت الناى والصاجات والطبلة والدف خطواتهن ويجعلها تسرع أو تبطئ الإيقاع .. وتبدو هذه الراقصات فى حالة سكر .. إنهن متهتكات فى حالة هذيان" (١٧).

ومن المؤكد أن هذه الكتابات كان لها تأثير قاطع فى لحظة اتخاذ قرار غزو مصر .

والشىء الغريب حقًا هو الجهد الذى بذله سفارى لتحويل مصر الشهوانية تلك إلى عمل ضخم عن محمد والقرآن عند عودته إلى فرنسا عام ١٧٨٠، ففى "رسائل عن مصر" أدخل فقرات طويلة باللغة العربية؛ وبهذا كان أول من استخدم فى فرنسا

اللغة الأصلية [١٨]. وبفضل مغامراته المصرية دخل فى قلب الحضارة العربية نفسها بفتياتها وعاداتها وهياكلها الثقافية وآليتها الاجتماعية، وشرع فى تأمل طويل حول القوانين القديمة التى تحكم هذه الحضارة ووصل إلى حقيقتها الشرقية مع "القرآن ومحمد" اللذان يشكلان فى رأيه الحجرين المؤسسين اللذين لا يقدم دونهما أى تناول للشرق أى نفع ..

ثم شرع بعد ذلك فى العمل الضخم لترجمة القرآن .. وبفضله أعتدنا بصورة أكبر على لفظ "قرآن"، ففى الواقع كان الغربيون لا يزالون يستخدمون لفظ "القرآن" Alcoran وهو التعبير الذى استخدمه مترجمو ومناظرو العصور الوسطى.

ونشر بعد ذلك بعام عملاً ضخمًا عنوانه "حياة محمد" Vie de Mahomet وفى العام التالى "أخلاق محمد" .. La Morale de Mohamet وتم إعادة نشر "رسائل عن مصر Lettres sur l'egypte" ثلاث مرات فى فرنسا، ثم نشر ترجمة ألمانية وأخرى إنجليزية تم إعادة نشرها ثلاث مرات .. والحق أن أعمال سفارى عن محمد والقرآن بصفة خاصة هى التى ستصنع منه فى ثلاثين عامًا فقط النجم الباذغ فى سماء العلم الفرنسى.

وينقل لنا هنرى لورنس Henry Laurens الإشادة التى خصها به المؤرخ الكبير جينى Guignes :

> **"فقد قام بهذه الترجمة تحت أعين العرب الذين عاش بينهم لسنوات عديدة فى مصر، وبعد دراسة عاداتهم وعبقرية لغتهم قام بمراجعة عمله" [١٩].**

وقد تسبب النجاح الأدبى للشاب مع ذلك فى فضيحة بشأن نقله المحتمل من نصوص أبو الفدا المنشورة فى دول أوروبية أخرى .. وغالى البعض مؤكدين أن معارفه فى اللغة العربية لم تكن لتسمح له بالحديث بيسر مع المصريين.

وكان سفارى يصدم معاصريه بتبسيط الصورة البطولية لمحمد، فإلى جانب دور

"المشرع" الذى نقله عصر التنوير، رسم سفارى دور البطل المؤسس لإمبراطورية وأب حضارة تفوق حضارة نصارى ذلك العصر، ويرى سفارى أن عبقرية الرسول تأتى أساساً من خلود أعماله ..

وأثارت كتابات سفارى بصفة خاصة غيرة منافسه الشهير فولنى Volney وهجوم مباشر ولاسيما حول معارفه باللغة العربية، وبعد وفاته بفترة طويلة فى عهد نابليون أثار ناشره الباريسى المفاجأة بنشره عام ١٨١٣ كتاب "قواعد اللغة العربية العامية والفصحى" "Grammaire de la langue arabe vulgaire et littéraire" مكذباً بذلك أعداء سفارى.

أما بونابرت الذى كان يقدر عمل سفارى كعالم مصريات وإسلاميات حق قدره فقد قام بتوزيع كتابه "رسائل عن مصر" "Lettres sur l'Egypte" على جنوده ليسمح لهم بأن يحلموا وليشحذ حماستهم، أما قادته فقد خصهم "برحلة فى مصر" "Voyage en Egypte" لفولنى.

كونستنتان فرنسوا فولنى (١٧٥٧ - ١٨٢٠) :

تعد رواية "رحلة فى مصر وسوريا" "Voyage en Egypte et en Syrie" لفولنى مرحلة كبرى فى المعارف التى تم اكتسابها عن مصر فى نهاية القرن الثامن عشر، فقد شاءت الصدفة أن يلتقى بونابرت بفولنى وأن يناقش معه موضوع مصر، ومما لا شك فيه أن هذا اللقاء قد شكل مرحلة فاصلة فى تاريخ غزو فرنسا لهذا البلد.

وفولنى، هذا "الحاج فى الواقع" كما يصفه جان مارى كاريه Jean Marie Carré اشتهر بين المؤرخين بوصفه محطماً للأحلام وعدواً لسفارى ورحالة ينقصه شىء ألا وهو حب الأقطار التى يزورها .. ولم يكن رحالة مثل الآخرين ولكنه كان بالأحرى باحثاً تسيطر عليه الأرقام يصف ما يراه فى أرض الواقع وينقل ملاحظاته السياسية والعسكرية.

وكانت حياة فولني منذ ميلاده في ٣ فبراير ١٧٥٧ بمدينة فيتريه Vitré وحتى رحلته في مصر سلسلة من الإزعاج تعود إلى اسمه الحقيقي: صيد البقر Chasse boeuf وشرع والده في تغييره ليؤمن لابنه مستقبلاً وأعطاه اسم بواجيريه Boisgirais، بيد أن هذا الاسم لم يعجب الشاب فولني الذي كان يعشق فولتير الذي كان يعيش بفرني Ferney ولذا قرر أن يدمج المقطع الأول من "فولتير" إلى المقطع الأخير من "فرني" وأطلق على نفسه "فولني".

وبعد طفولة مؤلمة بسبب وفاة أمه وهو في الثانية من عمره، وبسبب ضعف صحته العامة كان يتردد على المدرسة بصورة غير منتظمة في جو ينقصه الحب؛ وكان الطفل يبدو حزيناً بالنسبة للوسط الذي يعيش فيه، وقام أحد أعمام فولني بتسجيل اسمه - على غير رغبة هذا الأخير - بمدرسة أنجيه Angers وسريعاً ما اكتشف في نفسه موهبة مذهلة في مجال دراسة اللغات القديمة، وبعد خمس سنوات غادر أنجيه إلى باريس بعد أن حصل من والده على نصيبه من إرث والدته.

كيف كان يمكن له التصرف في هذه الثروة؟ يقدم لنا جان ماري كاريه الإجابة بوصفه حياة فولني الباريسية الجديدة:

> **"لم يكن قط شخصية متسرعة أو اجتماعية أو مبذرة للأموال وبدلاً من أن يترك نفسه لدوامة المدنية الكبيرة كان يمضي يومه بالمكتبات واهتم بدراسة التاريخ والفلسفة ثم درس الطب، وفي تلك الأثناء كتب - وهو دون العشرين من عمره - بحثاً عن تاريخ هيرودوت ووجهه للأكاديمية مما تسبب له في هجوم عنيف من جانب البروفسور لارشيه "Larcher[٢٠]** .

واقترب فولني من مصر بفضل "دراسته عن هيرودوت" فشغف بهذا الشرف في الوقت الذي كان فيه موضوع الشرق ومشكلات الإمبراطورية العثمانية المريضة يلح على خاطر الأوروبيين.

وسريعًا ما اتخذ قراره بالسفر: ولكن ما هى الوجهة التى يجب أن يقصدها؟ أوضح ذلك فى أكتوبر ١٧٨٦:

"منذ خمس سنوات بينما كنت صغير السن حصلت على إرث صغير فأصبحت أملك مبلغًا من المال وحرت فى استخدامه، ونصحنى بعض الأصدقاء بالاستمتاع بالمبلغ ونصحنى آخرون بتوظيفه ليدر على دخلاً، وفكرت وقررت أن هذا المبلغ كان ضعيفًا حتى لا يمكن أن يضيف الكثير إلى دخلى ولكنه فى نفس الوقت كبيرًا بحيث لا يمكن إنفاقه فى أمور تافهة؛ وكانت ظروف سعيدة قد أدت إلى اعتيادى للدراسة خلال شبابى، كنت قد اكتسبت حب بل كنت أستشعر شغفًا نحو الدراسة، وبدت لى هذه الأموال وسيلة جديدة لإشباع هذا الحب ولفتح مجال أكبر لتعليمى، وكنت قد قرأت وسمعت أن أكثر الوسائل فاعلية لإثراء العقل وتكوين الرأى هو السفر، واتخذت قرارًا بالسفر، وبقى أن أحدد مسرح الرحلة؛ كنت أنشد مكانًا جديدًا أو على الأقل براقًا، وبدت لى بلادى والبلدان التى تجاورها معروفة أو يسهل معرفتها، وجذبتنى أمريكا الناشئة والبرابرة، وكانت هناك أفكار أخرى تدفعنى إلى اختيار آسيا ورأيت فى سوريا وبالتحديد فى مصر – فى ظل العلاقة المزدوجة لما كانت عليه فى الماضى ولما هما عليه اليوم – مجالاً مناسبًا للملاحظات السياسية والأخلاقية التى كنت أريد الاهتمام بها وقلت لنفسى: "لقد نشأت غالبية الآراء التى تحكمنا من هذه الأقطار، ضمنها خرجت الأفكار الدينية التى أثرت بطريقة كبيرة على سلوكنا العام والخاص وعلى قوانيننا وعلى كل وضعنا الاجتماعى، ولذا يبدو من المفيد معرفة الأماكن التى نشأت فيها هذه الأفكار والعادات والتقاليد التى تكونت منها وروح وخصال الأمم التى أقرتها .. ويبدو أيضًا

مفيدًا دراسة إلى أى حد تغيرت هذه الروح وهذه العادات والتقاليد أو بقيت كما هى والبحث عن آثار الطقس وآثار أسلوب الحكم وأسباب العادات، باختصار الحكم عن طريق الحالة الراهنة على ما كان عليه الحال فى الأزمنة الماضية.

ومن ناحية أخرى، أخذًا فى الاعتبار الظروف السياسية التى تعيشها الإمبراطورية التركية منذ عشرين عامًا وبالتفكر عن النتائج التى يمكن أن تستتبعها، فقد بدا لى شيئًا مثيرًا للفضول اكتساب مفاهيم دقيقة عن نظامها الداخلى لاستخلاص قوتها ومواردها .. ومن هذا المنظور شرعت فى رحلتى نحو نهاية ١٧٨٢ إلى مصر" (٢١).

وليجهز نفسه لهذه الرحلة عاد فولنى إلى أراضى عمه فى أنجيه حيث مارس فى هدوء الريف تدريبات رياضية عنيفة مثل السباق والقفز فوق الخنادق الواسعة وتسلق الأسوار، وتدرب بصورة خاصة على تنظيم خطاه ليتمكن من قياس مسافة بطريقة دقيقة عن طريق الوقت الذى يقطعها فيه، وبعد عام اتخذ قراره النهائى:

"عندما وجد نفسه مستعدًا بصورة كافية ودون أن يطلع والده على مشروعه ودون أن يعطى بالاً لاعتراضات عمه بدأ رحلته وقال وداعًا لقصور أنجيه القديمة ذات الأسقف الأرميدية وحمل حقيبة على ظهره وعلق بندقية على كتفه ولف حول وسطه حزام جلد به ٦٠٠٠ فرنك ذهبى وسلك طريقه إلى مارسيليا فى نهاية عام ١٧٨٢" (٢٢).

وكان أسلوب عمله هو الأسلوب الذى يطلق عليه "هندسى" حيث لا يوجد مجال للوصف فيه ويتلخص فى الشعار التالى: "دراسة بدقة وتأنى" ويقول فى نهاية مقدمته القصيرة:

"حرصت فى علاقتى على الحفاظ على الروح التى تحليت بها عند دراسة الأمور: أى حب محايد للحقيقة، وقد حرمت على نفسى

أى لوحة خيالية، رغم عدم جهلى بمزايا التوهم بالنسبة لمعظم القراء، ولكننى كنت أعتقد أن قصص الرحلات تنتمى لجنس التاريخ، لا الرواية، ومن ثم لم أقدم البلاد بصورة أجمل مما بدت لى، ولم أرسم الناس بصورة أفضل أو أسوأ مما رأيتهم عليها ، وربما كنت قادرًا على رؤيتهم على ما هم عليه بما أننى لم يصبنى منهم نفعٌ ولا ضررٌ" (٢٣).

وينقسم كتابه إلى جزئين: الحالة المادية لمصر ثم عنوان جانبى "عن مصر بصفة عامة وعن مدينة الإسكندرية" فاصلاً بذلك الإسكندرية عن مصر. وبعد تحقيق دقيق يستنتج الكاتب فقر الريف المصرى وبؤس الفلاح ويترجم الجزء الأول بصفة خاصة رغبة فى معارضة سفارى:

"وهناك حدث أخير يدعيه سفارى ولا يمكن أن أؤيده دون تحفظ .. فمنذ مقامى فى مصر (كما أورد فى الرسالة الأولى ص١٤) "قمت مرتين بجولة فى الدلتا وعبرها عن طريق قناة منوف، وكان النهر يجرى بقوة فى فرعى رشيد ودمياط وكذلك فى الفروع التى تجرى داخل البلاد، ولكن لم تكن المياه تطفو على الأرض فيما عدا المناطق الوطيئة التى تم فيها حفر السدود لرى المزارع المغطاة بالأرز" (٢٤).

وبالطريقة ذاتها اعترض على الوصف الذى قدمه سفارى عن جمال نساء جورجيا:

ونساء المماليك جوارى نقلن من جورجيه ومينجريلى .. Mingre lie وعادة ما يثار الحديث عن جمالهن وغالبًا ما يؤمن الناس بذلك للسمعة التى اكتسبتهن فى هذا الصدد، والحق أن أوروبيًا لم يقم إلا بزيارة تركيا لا يجوز له أن يقدم شهادته عليهن، وهؤلاء النسوة لا يمكن رؤيتهن شأنهن شأن الأخريات، ومما لا شك فيه

أن هذا هو سـر الفكرة التى أخذها الناس عن جمـالهن .. وقـد سنحت لى الفرصـة أن أسأل زوجـة أحد تجـار القاهرة عن هذا الموضوع، وتدخل هذه السيدة فى الحريم بفضل تجارتها للكلف والأقمشة المستوردة من ليون Lyon، وأكدت لى هذه السيدة التى لها أكثر من حق فى الحكم الصائب على هذه الأمور أنه من بين الألف إلى الألف ومائتين مـن سـيدات الصفـوة اللاتى رأتهـن لم تجد بينهن عشرة جميلات حقًا، ولكن الأتراك لا يحكمون بهذا المنطق الصعب فهم يحكمون على أية امرأة بأنها جميلة إذا كانت بيضاء وبأنها رائعة الجمال إذا كانت ممتلئة والتدليل على قمة الجمـال يقولون أن وجـهـها مسـتدير كالقـمـر فى اكتـمـاله وأن أردافـهـا كـوسـادتين، ويمكننا القـول بأنهم كـانوا يقـيسـونهـا بالقنطار، والحق أنهم يرددون مثلاً مميزًا عن علماء الفيزياء "خذ البيضاء لتتمتع بها عيناك وخذ المصرية لتتمتع بها أنت" فقد أثبتت لهم التجربة أن سيدات الشمـال أكثر برودة من سيدات الجنوب" (٢٥).

وعلى نقيض سفارى شعر فولنى بأنه مضطر لتفسير هذا الأمر فيقول:

كنت قـد كتبت هذه المقالة منذ فترة طويلة عندمـا نشر سـفارى مـجلدين جـديدين عن مصر يضـم أحدهما حياة على بك نفسه، وكنت أعتقد أننى سـأجد فيها روايات يمكن التحـقق منها أو تصـحيح رواياتى عن طريقها، ولكن كم كانت دهشـتى عندما استنتـجت أنه لا يوجد شىء مـشـترك بيننا ! وقـد ضـقت بهذا الاختلاف لا سيما أننى كنت لا أوافقه الرأى حول مـوضـوعات أخرى، وقد يبدو لبعض القراء أننى أقصد معارضـة هذا الرحالة، ولكن فضلاً عن عدم معرفتى لسفارى شخصيًا فإن الانحياز

بصفة عامة ليس جزءًا من شخصيتى، ولكن كيف يحدث أن نكون قد زرنا المكان نفسه ورأينا الشهود ذاتهم وأن تكون رواياتنا بهذا القدر من الاختلاف؟ وأعترف أننى لا أرى السبب بوضوح، وكل ما يمكن أن أؤكده إنه خلال الشهور الستة التى عشتها فى القاهرة استفسرت بعناية من تجار وبائعين نصارى يتميزون بالحكمة وبطول مقامهم فى البلاد وقد أعطونى شهادات تبدو لى أكثر صدقًا، ووجدتهم متفقين على الوقائع الأساسية، وكان لى الحظ فى سماع تأكيد روايتهم من تاجر من البندقية (سيه. روزيتى C. Rosetti) الذى كان أحد مستشارى على بك المقربين وأحد مؤسسى علاقاته مع الروس ومشروعاته حول تجارة الهند"(٢٦).

وكان ما يهم فولنى هو وضع تقرير دقيق عن الوضع السياسى فى هذا البلد منذ ثورة على بك ضد الحكم العثمانى ونهايته المأسوية حتى خليفته عام ١٧٨٥، ويقدم لنا وصفًا لاثنين من خصوم بونابرت المستقبليين فى مصر وهما مراد بك وإبراهيم بك مملوكا محمد أبو الذهب:

"وما أن انتشر خبر وفاة على بك حتى اتجه هذا الجيش فى هرج ومرج صوب مصر كما كان الحال وهو فى اتجاه دمشق، أسرع مراد بك الذى أكسبته خطوة محمد وزنًا وثقة كبيرة للعودة إلى القاهرة لينافس إبراهيم بك على القيادة، وهذا الأخير الذى حرره على بك وجعله أحد ندمائه لم يكن على علم بحالة الأمور من قبل ليأخذ إجراءات ليحافظ لنفسه على سلطة كانت بحوزته منذ وفاة سيده .. وكان كل شئ ينذر بحرب علانية، ولكن عندما قاس المنافسان حجمهما وجدا إنهما فى حالة تعادل مما جعلهما يخشيان أى صراع، وآثرا خيار السلام وعقدا اتفاق أبقى على

وحدة السلطة آنذاك بشرط أن يحتفظ إبراهيم بلقب شيخ البلد، وقد أملى هذا الاتفاق دواعي أمنهما المشترك، فمنذ وفاة علي بك كان البكوات والكشاف من أسرته يرتعدون خوفًا سرًا من احتمال انتقال السلطة بين أيدي عصبة جديدة، وكان تفوق محمد الذي كان من قبل أحد أقرانهم – قد أحرج مطامعهم، كما كان تفوق عبيده أمرًا غير محتمل بالنسبة لهم؛ وقرروا التخلص منه وبدأوا في تدبير المكائد والمؤامرات التي انتهت بتكوين حزب مناهض لإبراهيم ومراد" [٢٧].

ونكتشف بعد ذلك وصفًا جد دقيق لملابسهم:

بداية تتكون الملابس من قميص واسع من نسيج قطني فاتح ومائل للاصفرار يلبس من فوقه نوعًا من العباءة من النسيج الهندي أو نسيج خفيف من دمشق أو حلب .. وهذه العباءة التي يطلق عليها عنتري تسقط من العنق وحتى العرقوب وتلتقي على الجزء الأمامي من الجسم حتى نحو الأرداف حيث تثبت بحبلين وفوق هذا الغطاء يأتي آخر بنفس الشكل وبنفس الاتساع وتصل أكمامه الواسعة أيضًا حتى أطراف الأصابع، ويسمى هذا الغطاء بالقفطان، وكان مكونًا بصورة من نسيج حريري أكثر ثراء من الأول، ويربط حزام طويل هذين الردائين عند الوسط ويقسم الجسم إلى جزئين .. وفوق هاتين القطعتين هناك قطعة ثالثة يطلق عليها الجبة، وهي ثوب دون بطانة وله نفس الشكل العام فيما عدا أن أكمامه تبلغ المرفقين، وفي الشتاء وغالبًا أيضًا في الصيف تطرز هذه الجبة بفراء وأخيرًا يلبس فوق هذه الثياب الثلاثة ثوبا آخر نطلق عليه بنش beniche، وهو رداء أو ثوب الاحتفالات، ويستخدم بالتحديد لتغطية الجسم كله وحتى أطراف

الأصابع التي يكون دريًا من عدم اللياقة أن تظهر أمام كبار القوم، وتحت هذا البنش يبدو الجسم ككيس طويل تخرج منه رقبة عارية ورأس خالية من الشعر تغطيها عمامة، وكان يطلق على عمامة المماليك كاعوك qaouq وهو عبارة عن أسطوانة صفراء مزين من الخارج بلفافة من النسيج الموصلى الملصقة بفن .. ويضع الرجال فى أقدامهم جورب من الجلد الأصفر يصل حتى الكعب وخف دون جوانب يسهل خلعه، ولكن القطعة الفريدة فى هذه الملابس هى نوع من السروال غاية فى الاتساع ويصل من حيث الارتفاع حتى الذقن ويمكن لكل رجل فيه أن تسع الجسد بأكمله" (٢٨).

وقد قدم فولنى خدمات جليلة للعمل العسكرى الذى تم فى السنوات التالية، ومن خلال كتاباته التى تتسم بالأمانة والشدة وبفضل اختلافه مع سفارى استشعر بونابرت أهمية هذا الكتاب منذ نشره عام ١٧٨٧ وسعى إلى لقاء مؤلفه، والتقى به فى فبراير عام ١٧٩٢ فى بكونفينا Confina بكورسيكا حيث كان الرحالة يقوم بتجارب زراعية على النباتات الغريبة وبعد ذلك التقيا عدة مرات فى المعهد حيث كان الجنرال والرحالة الشهير عضوين فيه. وبعد ذلك بقليل قدم مؤلف "رحلة فى مصر وسوريا" الجنرال الشاب إلى لايفيليير ليبو La Revellière lépeaux التى قدمته بدورها إلى باراس Barras ليحصل على قيادة الجيوش وهكذا بدأ صعود بونابرت الذى جعل من كتاب فولنى توراة مغامرته الإسلامية فى مصر.

الهوامش

(1) Henry Laurens, Les Origines intellectuelles de l'expédition d'Egypte. L'orientalisme islamisant en France (1698 - 1798), Istanbril - Paris, 1987, p. 2.

(2) Ibid., p. 21 - 22.

(٣) أيتعين التذكير بصورة محمد كما جاءت في "الكوميديا الإلهية" لدانتي حيث نرى الرسول هو يمزق بيديه صدره من الكوع وحتى منتصف جسده لأنه صنع "دينا مزيفا"!

(4) Henry Laurens, op. Cit., p. 28.

(5) Cité par Henry laurens, op. Cit., p. 35.

(٦) على سبيل المثال نجد أن الشعوب التي تعيش في مناخ شديد الحرارة تعاني من العصبية والعبودية بينما تميل الشعوب التي تعيش في جو بارد إلى القيام بأعمال عظيمة وإلى الحرية.

(7) Jean-Marie Carré, Voyageurs et écrivains français en Egypte, le Caire, IFAO, 1956, p. 67 - 68.

(8) Ibid., p. 68.

(9) La contemplation en Egypte, 1831, Document annexe publie par l'éditeur ladvocat, vol. IV, p. 374 et cité par Jean - Marie Carré, op. Cit., p. 75.

(١٠) نجح على بك في الاستيلاء على مكة وسوريا قبل هزيمته وقام منافسه وخليفته محمد أبو الذهب بتسميمه عام ١٧٧٣، وحكم البلاد عبدان لهذا الأخير وهما مراد وإبراهيم في حالة من الفوضى حتى وصول بونابرت عام ١٧٩٨ .

(11) C. E. Savary, Lettres sur l'egypte, 1785 - 1786, Paris, Vol. I, p. 345.

(12) Ibid., p. 48 - 50.

(13) Ibid., p. 65.

(14) Idem.

(15) Ibid., p. 69.

(١٦) انظر الفصل الذي خصصناه لنرفال في مصر في كتابنا "الولع الفرنسي بمصر من الحلم إلى المشروع" والمصدر نفسه ص ١٠٩.

(17) C. E. Savary, op. Cit., p. 151.

(١٨) إنها نصوص أبو الفدا مؤرخ مصرى فى القرن الثالث العشر. ويجدر الملاحظة أن أبا الفضل كان معروفًا اعتبارًا من ١٧٢٣ عندما نشر جاجميه فى أكسفورد.

"Ismael Abul-Feda, de vita et rebus gestis Mohamedis".

وكانت هذه أول سيرة عن الرسول فى الغرب جمعت مادتها باللغة العربية ولغة التحرير اللاتينية، وقد استلهم سفارى من أبو الفدا وأدخل نصوص أبو الفدا فى "رسائل عن مصر".

(19) Henry Laurens, op. Cit., p. 86.

(20) Jean - Marie Carré, op. Cit., p. 92.

(21) Volney. Voyage en Egypte et en Syrie, la Haye, Mouton, 1959, p.21-22.

(22) Jean. Marie Carré, op. Cit., p. 94.

(23) Volney, op. Cit., p. 23.

(24) Ibid., p. 44.

(25) Ibid., p. 75.

(26) Ibid., p. 78.

(27) Ibid., p. 94.

(28) Ibid., p. 102 - 103.

الجزء الثانى

الصدام أو الحرب بين العقليات

الفصل الأول

ديوان الجمهورية

الجنرال بونابرت:

"العزة لله. لا إله إلا الله محمد رسول الله
وأنا من أصدقائه".

العلامة إبراهيم:

"فلتكنس ملائكة النصر التراب من طريقك
ولتغطك بأجنحتها".

جريدة المونيتور Le Moniteur

بتاريخ ٢٧ نوفمبر ١٧٩٨ - ذكرها
شاتوبريان فى مذكرات القبر الآخر
Mémories d'outre - tombe

فى الحادى عشر من مارس ١٧٩٦ سافر جنرال مغمور إلى إيطاليا على رأس جيش لتحويل أنظار العدو، إذ لم تكن فرنسا الثورية قد أنهت صراعها مع عدويها العنيدين إنجلترا والنمسا، وما لبث أن فاجأ هذا الجنرال العالم بأسره بانتصاره فى اللودى Lod فى ١٠ مايو ١٧٩٧ ليوقع وهو فى وضع القوة معاهدة كامبو فورميو Campo Formio فى أكتوبر من العام ذاته.

وبدأ هذا الجنرال الذى يدعى نابليون بونابرت منذ موقعة جسر أركول Arcole الشهيرة فى تعميق "مشروعه الشرقى"، والحق أننا نجهل الوقت بالتحديد الذى فكر فيه فى غزو مصر ولكن كلنا يعلم معارفه عن الإسلام وإعجابه برسوله.

ففى ١٦ أغسطس ١٧٩٧ كتب لحكومة المديرين ما يمكن اعتباره وثيقة أولى تتعلق بمشروعه المصرى:

> **تنهار إمبراطورية الأتراك يومًا بعد يوم، وسيسمح لنا امتلاك الجزر من دعم ذلك الانهيار أو بالقيام بما يتعين علينا عمله، ولم يمض وقت طويل منذ كنا نشعر أنه للقضاء على إنجلترا حقًا يتعين علينا الاستيلاء على مصر .. إن الإمبراطورية العثمانية الشاسعة التى تحتضر يومًا بعد يوم تفرض علينا التفكير مبكرًا فى اتخاذ الوسائل للحفاظ على تجارتنا فى الشرق (١).**

وسريعًا ما شرع فى استعارة كتب تتناول الشرق من المكتبة الإمبروزية بمدينة ميلانو قبل أن يطلب إلى أرشيفات وزارة البحرية كل الوثائق المتعلقة بمصر، وتلقى عددًا من الخرائط والرسومات وبصفة خاصة تقرير البارون توت الشهير، وتوالت الأحداث بسرعة جنونية منذ عودته منتصرًا إلى باريس وحتى رحيله إلى مصر بعد ذلك بعدة شهور، وعينته حكومة المديرين قائدًا عامًا لجيش فرنسا فى ٢٦ أكتوبر عام ١٧٩٧ .

وإزاء استحالة بلوغ "أليبون Albion الخادعة"، تواطأ نابليون مع تاليران Talley-rand ليحولا بسرعة فائقة جيش فرنسا إلى جيش عملاق للشرق مهمته الاستيلاء على مصر، وبالفعل كان تاليران – الذى كان قد عين مؤخرًا وزيرًا للخارجية – قد تناول من قبل موضوع غزو مصر فى ٣ يوليو من العام ذاته خلال جلسة خصصها المعهد لموضوع الشرق وكان عنوانها: "دراسة عن المزايا التى يمكن جنيها من المستعمرات الجديدة فى الظروف الحالية". وكان الأسقف دوتون D'Autun قد أعطى محاضرة مثيرة عن كل المشروعات التى تحدثنا عنها ولاسيما مشروع ليبنتز وتوصيات القديس دينيه والبارون دى توت. وفى ١٣ سبتمبر تلقى خطابًا من بونابرت:

"كنت أود – أيها المواطن – الوزير – أن تجمع فى باريس بعض المعلومات لتخبرنى برد فعل الباب العالى الممكن لغزونا مصر"(٢).

وهكذا حصل بونابرت وتاليران من حكومة المديرين فى ٥ مارس ١٧٩٨ على موافقة للقيام بغزو مصر، وبعد ذلك بأقل من أسبوعين وبالتحديد فى ١٦ مارس أصدرت حكومة المديرين – بقرار من وزير الداخلية – أوامر بوضع كل الإمكانات فى خدمة جيش نابليون فيما يتعلق بالعلوم والعلماء، وخلال أقل من مائة يوم تم تكوين الأسطول العظيم دون أن يعرف أحد وجهته الحقيقية . فقد كان الطابع السرى الذى دعا إليه كل من القديس ديديه والبارون دى توت بإلحاح هو "السلاح" الأول لهذه الحملة.

وفى ١٩ مايو رحل الأسطول من ميناء طولون، وفى ١١ يونيو تم الاستيلاء على مالطة دون إطلاق رصاصة واحدة، وبنفس السرعة انطلق بونابرت نحو الإسكندرية يوم ١٨ ليصل مساء يوم ٣٠ من الشهر ذاته، ولم يكن هناك دقيقة واحدة يمكن فقدها إذ أعطى القائد العام أوامره بنزول الجيوش فى الأول من يوليو فى الواحدة صباحًا لتطأ قدماه أخيرًا أرض الفراعنة، ومما لا شك فيه أن عبقرية بونابرت العسكرية كانت أساس نجاح هذه الحملة، وكان منذ أقل من عام قد انتصر فى إيطاليا، وتوجه نحو عاصمة الفاطميين وصلاح الدين فى ظروف مناخية سيئة للغاية، وفى ٢١ يوليو هزم المماليك فى معركة "الأهرامات" الشهيرة قبل أن يدخل علانية فى المدينة التى طالما وصفها سفارى وفولنى.

ووجد إزاءه قوة واحدة قادرة على الإضرار بمشروعاته ألا وهى إيمان المصريين القوى. وتساءل الفرنسيون أيتعين علاج الداء بالداء؟ ولم يكن للداء المُكدِّر للمصريين مقابل فرنسى سوى داء ظهر مؤخرًا كأثر لفكر التنوير مزودًا بتعطش للتحرر ولدته الثورة وهو العلم، وأطلقت مجلة هيستوريا Historia على الحملة على مصر الاسم المناسب: "الغارة العلمية الأولى" (٣).

ويمكننا أن نأخذ فكرة عن كم الرجال والتسليح والعلماء من خلال ما أوردته المجلة ولاسيما الأرقام الهائلة لمكونات الحملة:

٤٨٦٦٢" رجلاً منهم ٣٢٧٣٨ جنديًا من جيش الشرق يضاف إليهم ١٢٩٠٧ من طاقم الإسطول و٣٠١٧ من طاقم القوافل، وعلى سبيل المقارنة فقد بلغ عدد سكان مدينة ستراسبورج فى هذه الفترة ٤٩٠٠٠ نسمة.

وقد تم شحن ١٢٣٠ حصانًا من بينها سبعمائة مخصصة لفرق الفرسان، و٨٠ زوجًا من الجاموس مخصصة لسحب مدافع الحصار، وكان هناك أيضًا حيوانات موجودة لتحسين طعام الضباط المشترك (طيور، جاموس، خراف ..) و١٦٠٠ زوج أحذية و١٠٠٠ زوج من الأحذية العسكرية و١٦٠٠٠ قميص و٨٠٠٠ جعبة و٦٠٠٠ قبعة و١٠٠٠٠ زوج جوارب.

٣٠٠ سيدة على متن البواخر وهن زوجات أو عاهرات متنكرات وغسالات وخياطات ..

١,٥ طن من المواد تم تحميلها لكل رجل (مع مقارنة هذا الرقم لبضع مئات من الكيلوجرامات لكل جندى رومانى وللأطنان الأربعة المخصصة لكل جندى عام ١٩١٤)، واستفاد بونابرت بامتياز نقل "سيارة مدنية" لاستخدامه الشخصى .

٢٣٩٢٢ جنديًا من جنود المشاة موزعين على خمسة فرق تحت قيادة الجنرالات ديزكس Desaix ورينييه Reynier وكليبر Klé-ber ومينو Menou وبون Bon .

٢٨٠ باخرة تكون جزءًا من أسطول النقل تم مصادرتها، وينقسم هذا الأسطول إلى عشر جنسيات أغلبها من بلدان البحر المتوسط .. ويتكون من ١١ سفينة ثلاثية الصوارى و٧٤ قلعية و١ سفينة شراعية متعددة القلوع و٢٤ صيادة و٨٢ مربعة الأشرعة و٦٩ طرطنًا، وتبلغ السعة الكلية لهذا الأسطول ٤٧٣٠٠ برميل (البرميل = ٢,٨٣ م٣).

وتشكل ١٢ بارجة الأسطول الحربي: ١١٨ مدفعًا شرق وثلاثة مدافع ٨٠، و٨ مدافع ٧٤، ويضاف إلى ذلك ٧ فرقاطات و٩ بواخر مسلحة بسفن حربية و٥ قلعيات و٣ سميريات، ويستكمل الأسطول ببواخر خفيفة صالحة للملاحة النهرية ومخصصة لركوب النيل (٤ صيادات و٦ طراطن و٦ زوارق إنقاذ مسلحة و٢ فلوكة مسلحة).

١٧١ قطعة مدفعية (منها ٣٥ مدفعًا للحصار و٧٢ مدفعًا ريفيًا و٢٤ قذافًا و٤٠ مدفعًا هاون) مزودة بثلاثمائة طلقة و٤٤٨ خزينة ذخيرة و٢٤٨ عربة و١٧٩ سلمًا و٥٩٩١٥٠ كيسًا لجمع الأغراض و٩١٥ رأس صارى المؤخرة و١٠٦٤٤ مجرفة و٢٧٨٦ فأسًا و٢٧ مسبكًا (منها ٢٠ مسبكًا ريفيًا)

٣٠٣٠ فارسًا تحت قيادة الجنرال دوما Dumas، و١٦٨ ضابطًا طبيبًا من بينهم لارى Larrey وديجينيت Desgenettes، و٢٦ مندوبًا حربيًا و٤٨٦ أمين صندوق وإداريًا.

٣١٣٧ جندى مدفعية تحت قيادة الجنرال دومارتان Dommartin.

٩٣٠٠٠٠ لتر نبيذ منها ٤٨٠٠ زجاجة بوربونى bourbogne وهى "احتياطى القائد" (بونابرت)! ١٢٠٠٠٠ بنتة ماء الحياة وثلاثة أشهر من حصص الجنود اليومية من الطعام والشراب لطاقم الأسطول وأكثر من ١٦٠ طنًا من الغذاء لكل سفينة حرب (بسكويت، شطائر، دقيق، جبن، خضراوات جافة، توابل)، وصناعة البسكويت (٥٠٠ جرام للفرد يوميًا) تعد أمرًا مجهدًا يتطلب الاستيلاء على كل أفران طولون، وفيما يتعلق بالمياه لم يتم توزيع الزمزميات للحفاظ على سر وجهة الأسطول.

ولقياس مدى ما يمكن أن نطلق عليه "الصراع الحضارى"، يبدو من الأهمية بمكان معرفة حقيقة وضع مصر والمصريين عشية وصول بونابرت؛ ماذا كان يحدث بالفعل بينما كان الرحالة والقناصل الفرنسيون يبذلون كل طاقتهم لإقناع حكومتهم بغزو مصر؟ ماذا كان واقع هذا البلد بعيداً عن صورة الانهيار التى نقلها فى فرنسا الذين كانوا يؤمنون حقًا بضرورة الغزو ؟

ظلت العقول لفترة طويلة متأثرة بخطاب يصف مصر ما قبل بونابرت بأنها أكثر بلدان العالم بؤسًا ويتحدث عن سكانها بوصفهم شعبًا مخدراً من أثر المجاعات والطاعون وخضوعه الإسطورى، ومع ذلك تترجم الأحداث السياسية التى وقعت فى القرن الثامن عشر صورة مختلفة وتقدم ثورات الشعب المتتالية إزاء بونابرت تكذيبًا قاطعًا لهذه الادعاءات. فاعتباراً من بداية الغزو العثمانى للبلاد عام ١٥١٧ حكمت الحكومة الجديدة التى عينها سليم (١٥١٢ - ١٥٢٠) البلاد لمدة ثلاثة قرون.

وقامت دعائم السلطة الجديدة على الوالى الذى كان بدرجة وزير ويحمل لقب باشا، وهو شخصية من أصل تركى يتم إرسالها بصحبة بعض كبار الموظفين منهم قائمقام (كتخدا) وقاض (قاضى القضاة) ويتم تعيينهما أيضًا فى اسطنبول. وكان القاضى يرأس بمعاونة بعض المساعدين المحليين - الذين سنتحدث عنهم فيما بعد - التنظيم القضائى للدولة، وكانت القاهرة تضم عشر محاكم بينما تضم ضواحيها محكمتين (فى بولاق ومصر القديمة) .. وفيما يتعلق بتطبيق السلطة كان للعسكريين الذين يطلق عليهم "الانكشارية" دور هام. وتعد "الانكشارية" نوعًا من الميليشيا يقوم بتعيينها قائد تركى يطلق عليه أغا، ويختار هذا الأغا أفراد المليشيا من المقاطعات المسيحية للإمبراطورية وكان من أبرز مهامها مراقبة جباية الضرائب (٤).

وسريعًا ما استعاد المماليك مكانهم فى مقدمة المسرح السياسى المصرى الداخلى، فقد ترك لهم العثمانيون المنتصرون إدارة الأقاليم من منطلق رغبتهم فى تحقيق فاعلية السلطة وتوازنها، وهكذا تشكلت بصورة تدريجية - فى ظل السلطة العثمانية (الوالى والقاضى وأغا الانكشارية) أرستقراطية من بكوات (أعيان) وأمراء

مماليك بدت منذ نهاية القرن السادس عشر خطيرة لا بالنسبة لمعتمدى السلطة العثمانية فحسب ولكن بالنسبة للباب العالى نفسه فى أسطنبول فى القرن الثامن عشر.

وسريعًا ما بدا شيئًا بدهيًا أن تنشأ خصومة عنيفة بين فصائل السلطة الإدارية وملتزم الضرائب، وعاشت مصر بعض أحداث تصفية حسابات دامية بين المماليك والإنكشارية بينما كان الباشا يحاول الاستفادة من هذه الانقسامات العسكرية سواء على الصعيد العسكرى أو على الصعيد المالى.

ولكن اعتبارًا من القرن الثامن عشر قامت الفرقتان العسكريتان للبلاد بتوحيد صفوفهما بطريقة قوية، والحق أن الإنكشارية والمماليك كانوا متشابهين من حيث أصولهم القوقازية أو السركازية ومن حيث وضعهم كعبيد تم شراؤهم أو تجنيدهم من أقاليم الإمبراطورية، ونشأت من هذه الوحدة كبرى بيوت المماليك، وبذلك فرضت "القزداغلية Qazdaghlis" هيمنتها على الموارد الضريبية وتجارة البن الدولية التى كانت تمر أساسًا عن طريق السويس قبل التوجه إلى أوربا، وقد ثار أحد أفراد بيت القزداغلية المملوكى على السلطان وهو على بك الكبير وسرد قصته فولنى فى أجمل صفحاته.

وحكم على بك مصر من ١٧٦٠ إلى ١٧٧٢، وبدأ بالقضاء نهائيًا على بقايا الإنكشارية وعلى ضباط جماركهم اليهود وعين كاثوليك سوريين بكثرة، وكان بالغ الثراء وقام بتكوين جيش ضخم قبل أن يعزل الباشا العثمانى ويصك نقودًا باسمه ويبعث بجيوش لمهاجمة الحجاز عام ١٧٧٠ وسوريا عام ١٧٧١ ولكن تغلب عليه العثمانيون عام ١٧٧٣ .

وهكذا شهدت مصر حربًا أولى لاستقلالها غالبًا لا يتوقف عندها المؤرخون كثيرًا ويتحدثون عن تلك الحرب التى دارت بعد ذلك بأكثر من نصف قرن على يد محمد على عام ١٨٣١، وهذه الحرب الأولى ضد الباب العالى ما كان يمكن شنها دون امتلاك موارد داخلية كبيرة، والحق أن مصر كانت فى تلك الفترة تتمتع بازدهار مذهل، ويشرح لنا أندريه ريمون - مزكيًا ذلك بالأرقام - أسباب هذا الرخاء:

كانت مصر قد استفادت من تكوين إمبراطورية ضخمة ازدهرت فيها أنشطتها الإنتاجية والتجارية، وظل حرفيو النسيج المصريون غاية فى النشاط حتى نهاية القرن الثامن عشر ملبين احتياجات السوق الداخلية المكونة من أقاليم الإمبراطورية كما وجدوا لأنفسهم منافذ فى أوربا، ولم يقض الأوروبيون فى عام ١٤٩٨ على تجارة التوابل الشرقية كما ساد الاعتقاد لفترة طويلة، فقد استمرت التوابل تنقل لفترة طويلة عبر القاهرة، وظهر بصفة خاصة منتج جديد هو البن وشكل (اعتبارًا من عام ١٦٥٠) أساسًا لتجارة ضخمة مركزها القاهرة؛ فقد كانت القاهرة تعيد تصدير البن المزروع فى اليمن إلى أسطنبول وأقاليم الإمبراطورية وإلى الدول الأوروبية، ففى عام ١٧٠٠ انتقلت حوالى ٣٠,٠٠٠ حمولة موكا يمنية عبر القاهرة حيث كان هناك ٥٠٠ تاجر يعملون فى هذا النشاط فى ٦٢ خانًا للقوافل، وفيما بين عامى ١٦٧٩ - ١٧٠٠ كانت ثروة ٨٠ تاجرًا تمثل ٦٤٪ من مجموع ثروة حرفيى وتجار القاهرة كما يمكن أن نقيمها وفقًا للتركات المسجلة فى سجلات المحاكم (٥).

وشهدت هذه الفترة نموًا بطيئًا ولكن مؤكدًا للتبادلات الاقتصادية بين مصر وفرنسا، وكانت روايات الإهانات التى وجهها المماليك للتجار الفرنسيين مبالغًا فيها بعض الشىء وذلك لحرص المماليك الشديد على مواردهم من العملات الأجنبية والتى كان الأوروبيون هم أول مصدر لها، ولم يتم طرح مسألة وجود هؤلاء التجار مجددًا فى موانئ الإسكندرية ورشيد والسويس، ويعطى لنا إيف لاسوس Yves Laissus فكرة عن حجم التجارة الهائل فى هذه الفترة:

بلغ حجم التبادلات التجارية بالنسبة للمتوسط السنوى ٥,٥ مليون جنيه منها ٢,٥ مليونًا للصادرات المصرية إلى فرنسا و٣ ملايين لواردات مصر التى كانت أكبر من حيث قيمتها (٦).

وكان تنوع المنتجات المتبادلة ذا دلالة، ولإثبات قوة العلاقات بين البلدين ولاسيما الحالة الممتازة للاقتصاد المصرى فى ذلك الوقت يقدم لنا إيف لاسوس بيانًا لحالة البلاد:

"تصدر مصر إلى مارسيليا منتجاتها الخاصة من أرز وقمح ونطرون وقطن وكتان وسنى وجلد الجاموس والجمال وسلع قادمة من داخل إفريقيا (تمر هندى، وعاج، وريش نعام وبودرة الذهب) أو من المحيط الهندى عن طريق السويس (بن، وموكا، وصمغ عربى، وبخور، وجوزة الطيب، وصبر، وألوة، وغيرها من أنواع العقاقير). وتستورد مصر من مارسيليا أقمشة من كل الأنواع: أقمشة صوفية عادية من لنجدوك وصوف خفيف من سيدان ولوفييه وأبفيل والأنسجة القطنية الناعمة من مونبلييه Montpellier وحرائر من ليون وجالونات ذهبية وفضية وحتى الطرابيش التى تتنافس فى صناعتها مدينتا أكس ومارسيليا مع مدينة بارباري Barbarie (٧).

والحق أن عدد الفرنسيين الذين يعيشون فى مصر يبقى ذا دلالة وإن لم يكن ضخمًا، ففى ١٧٩٠ بلغ عددهم فى القاهرة ٢٩ وفى الإسكندرية ١٨ وفى رشيد ١٤ وهم جميعًا من التجار المهرة ذوى الخبرة فى مجال الشئون الشرقية ولاسيما الحركة الثقافية للتجارة الأوسطية، ويعمل معهم عدد كبير من الموظفين والعملاء المسيحيين السوريين والنصارى المصريين.

إن المعاهدات التى أبرمت بين قناصل بريطانيا العظمى ومحمد بك أبو الدهب فى ١٧٧٥ والتى حاكتها بعد ذلك بعشر سنوات فرنسا مع مراد بك ثم إنجلترا من جديد مع إبراهيم ومراد فى ١٧٩٤ تعطى فكرة واضحة عن هذا الرخاء، وشهدت مصر فى هذه الفترة بناء عدد كبير من المساجد والفنادق والنافورات فى شوارعها (٨).

وفى هذا الجو وهذا الرخاء عاشت طبقة من العلماء كانت من الناحية الثقافية والعرقية والدينية من أبناء البلاد وهم سليلو عائلات من البرجوازية الصغيرة ولكنها جد متدينة وتعمل بالتجارة والحرف الصغيرة فى القاهرة.

* * *

ويليق بنا الآن أن نتحدث عمن سيواجهون الصدمة الثقافية الأولى.

بعد شهر من الاستيلاء على الإسكندرية وسقوط القاهرة حطم الأميرال الإنجليزى نلسون الأسطول الفرنسى فى أبو قير فى الأول من أغسطس ١٧٩٨، وأصبح بونابرت وجيشه مقطوعين عن فرنسا ومضطرين للتعايش مع الشعب المناهض لهم وفى بيئة ثقافية مناقضة تماماً لبيئتهم، وفى مثل هذه الظروف الصعبة لم يكن أمام أى قائد عسكرى إلا أن يجهز نفسه لحرب طويلة أو للجلاء بمجرد أن تسنح الظروف بذلك، ولكن نابليون اختار بوصفه أحد أبناء عصر التنوير الأبرار طريقاً ثالثاً، وهو طريق إقامة السلام عن طريق الثقافة لا السلاح، وبعد هزيمة المماليك وإذلال الأتراك لم يبق فى مصر سوى قوة سياسية واحدة وهم العلماء المصريون، وبدأ بونابرت فى عملية جد مبتكرة وهى "تمصير مصر".

يعد عالم علماء الأزهر سديماً يتكون من حوالى ثلاثة آلاف شخص أغلبهم من الطلاب القادمين من الأقاليم المصرية كافة، وفضلاً عن هذا العدد هناك عدد كبير من الطلاب الأفارقة والآسيويين والمغاربة وحتى الأوروبيين موزعين وفقاً لجنسهم إلى مجموعات حول عامود يسمى رواقاً فى ساحة الصلاة. وهكذا كان هناك فى الأزهر – الذى يعد قمة الأماكن الدينية – رواقاً للشوام وآخر للمغاربة وثالث مشهور بشغبه وهو رواق العميان.

وكان يقوم بالتدريس لهذا العدد الهائل من الطلاب أساتذة المدارس الكبرى والمشايخ الصغار وكذلك المشايخ الكبار، وكانت هذه الشخصيات تتمتع باحترام دينى كبير من جانب المماليك والشعب إذ فضلاً عن صفتهم كعلماء شريعة [٩] كانوا يقومون منذ ثلاثة قرون بدور لا غنى عنه كوسطاء بين الشعب والطبقة العسكرية المسيطرة وهى الطبقة المملوكية – العثمانية، وحافظ نابليون على هذا الدور لهذه الطبقة مع منحها سطوة أكبر.

وكان الاعتبار الدينى والاجتماعى من جانب المماليك والمسئولين الأتراك ولاسيما الباشا نفسه يمنح لهذه الطبقة تأثيراً على الشعب الذى كان يرى فى هؤلاء الشيوخ

الأجلاء – بعد قرون طويلة من القهر التركى والمملوكى – حماة لهم إزاء الإذلال والقهر اليومى للجنود الإنكشارية الذين كانوا يميلون تارة جهة المماليك وتارة أخرى جهة الباشا.

ومع ذلك لم يكن هؤلاء الشيوخ الأجلاء دومًا لينى الطباع.

حاول الأمراء مرارًا استخدام "العلماء" لحل الأزمات السياسية، وهكذا فى ١٧٨٣ طلب إبراهيم بك من عدد من الشيوخ التوسط لدى مراد بك الذى كان قد ترك القاهرة وذلك لتهيئة عملية مصالحة، وأدى تدخل الشيوخ: البكرى والسادات والعروسى (شيخ الأزهر) إلى نجاح مؤقت، ففى لحظة وصول حملة حسن باشا عام ١٧٨٦ بعث له مراد وإبراهيم فى رشيد ثلاثة من كبار شيوخ الأزهر (العروسى ومحمد الأمير ومحمد الحريرى) للدفاع عن قضيتهم، والحق أن هؤلاء الشيوخ لم يحروزا أية نتيجة وفضلاً عن ذلك أدى تدخلهم إلى إلقاء الضوء على حدود استقلالهم وتبعيتهم للسلطات المصرية التى أكد حسن باشا على طابعها الاستبدادى، فعندما دعا العلماء للتعاون معه لإنهاء سيطرة المماليك، أجاب العلماء بشعور من الإجلال والحب مما تسبب فى دهشة الباشا بل غضبه : "سيدى إن شعب مصر الخاضع هو شعب ضعيف .. هؤلاء الناس يكونون جماعة قوية ومتحدة". ولم يكن العلماء يفكرون إطلاقًا فى الدخول فى مواجهة علنية ضد الأمراء أو فى الاضطلاع بدور فى السلطة التى تستقر فى القاهرة [١٠].

ويورد المؤرخ المصرى المعاصر لحملة بونابرت الشيخ الأزهرى الكبير الجبرتى فى كتابه "عجائب الآثار فى التراجم والأخبار" [١١] بعض السير الشخصية البليغة عن هؤلاء العلماء العظام ونجد هنا وصفًا لبعض هذه الشخصيات التى دعاها نابليون للعمل ضد المماليك وليقوموا بصفة خاصة بدور الوسيط بين جيشه والشعب.

الشيخ محمد السادات (نحو ١٧٣٣ - ١٨١٣) :

كان شخصية مؤثرة فى ذلك الوقت، ويرى الجبرتى أنه متعال ولا يكترث بالآخرين ومتعطش للثروة والجاه. وتحالف مع الفرنسيين منذ دخول بونابرت القاهرة ثم خرج عليهم وسجن بالقلعة.

الشيخ محمد المهدى (نحو ١٧٤٢ - ١٨١٥) :

وهو شخصية قوية ومليئة بالحيوية، ولد هذا الصديق الحميم لبونابرت قبطياً ثم دخل الإسلام وأصبح بطريقة غريبة شيخًا للأزهر. وكان عالمًا كبيراً فى الشريعة وماهراً فى مجال السياسة وأصبح أمينًا عامًا للديوان الذى شكله بونابرت.

الشيخ خليل البكرى (؟ - ١٨٠٩) :

من أحفاد السيدة فاطمة ابنة الرسول، وحفيد أبى بكر (أول الخلفاء الراشدين)، واشتهر عند وصول الفرنسيين إلى مصر بصراعاته ليصل لمنصب نقيب الأشراف كما اشتهر بما وصفه به أندريه ريمون بأنه "شخصية عابثة"، وقد تسببت علاقاته بجيش بونابرت فى إلقاء الشعب القبض عليه خلال ثورة القاهرة الثانية ضد الفرنسيين، ولكن أنقذه بونابرت فى اللحظة الأخيرة، ولما كانت ابنته متورطة فى علاقات مع ضباط من الجيش الفرنسى فقد تركها لتلقى حتفها على يد الشرطة.

الشيخ عبد الله الشرقاوى (١٧٤٠ - ١٨١٢) :

ابن تاجر بسيط من القاهرة وأصبح مدرسًا بالأزهر ثم شيخًا له بعد منافسة شرسة مع الشيخ الصاوى، ويصفه الجبرتى بأنه وصولى إلى أقصى حد ويقول عنه إنه كلما أقبلت الدنيا عليه ازداد رغبة فيها، وعين بونابرت هذا الشيخ الانتهازى أول رئيس للديوان.

وكون بونابرت بهؤلاء الشيوخ، وبعض الشخصيات الأخرى، الديوان الذى يعد أول مؤسسة مصرية بحتة منذ عصر الفراعنة مختصة بإدارة البلاد، وقد وصلت لنا معلومات نفيسة عن أعمال هذه المؤسسة وجلساتها بفضل المؤرخ المصرى الذى لم يكن جزءًا منها.

والمؤرخ من أصل حبشى من مدينة جبرت ومن هنا جاء اسمه (الجبرتى)، وسوف نخصص له فصلاً بعد ذلك. وولد فى القاهرة عام ١٧٤٥ من أسرة مثقفة ، كان أبوه مفتيًا حنفيًا، وبعد وفاة والده أدار رواق الجبرت بالأزهر .. وكان الرجل يملك ثروة طائلة وتربطه علاقة بطبقة المماليك العسكرية ولذا كان يظهر كراهية نسبية تجاه الفرنسيين، ومن ثم لم يتقلد المؤرخ المصرى الوحيد لهذه الأحداث أى منصب فى الأزهر أو الديوان فى ظل الاحتلال الفرنسى. وغداة انتصار بونابرت على المماليك فى معركة الأهرامات أدلى القائد بهذا البيان قبل دخوله عاصمة صلاح الدين:

إننا أرسلنا لكم فى السابق كتابًا فيه الكفاية، وذكرنا لكم أننا ما حضرنا إلا بقصد إزالة المماليك الذين يستعملون الفرنساوية بالذل والاحتقار، وأخذ مال التجار ومال السلطان، ولما حضرنا إلى البر الغربى خرجوا إلينا فقابلناهم بما يستحقون، وقتلنا بعضهم، وأسرنا بعضهم، ونحن فى طلبهم حتى لم يبق أحد منهم بالقطر المصرى، وأما المشايخ والعلماء أصحاب المرتبات والرعية فيكونون مطمئنين، وفى مساكنهم مرتاحين، إلى آخر ما ذكرته[١٢].

ويرسم لنا هنا القائد العام بوضوح خطوط سياسته وفى ٢٤ أكتوبر ١٧٩٨ استقر بالقاهرة فى بيت محمد بك الألفى [١٣] واعتباراً من يوم ٢٦ بدأ "ثورته المصرية" بإعلان إنشاء الديوان الشهير، ويصف لنا الجبرتى الحدث بهذه الصورة:

وفى يوم الخميس ثالث عشر صفر: أرسلوا بطلب المشايخ والوجاقلية عند قائمقام صارى عسكر. فلما استقر بهم الجلوس

> خاطبوهم وتشاوروا معهم فى تعيين عشرة أنفار من المشايخ للديوان وفصل الحكومات. فوقع الاتفاق على الشيخ عبد الله الشرقاوى، والشيخ خليل البكرى، والشيخ مصطفى الصاوى، والشيخ سليمان الفيومى، والشيخ محمد المهدى، والشيخ موسى السرسى، والشيخ مصطفى الدمنهورى، والشيخ أحمد العريشى، والشيخ يوسف الشبرخيتى، والشيخ محمد الدواخلى. وحضر هذا المجلس أيضًا مصطفى كتخدا بكر باشا، والقاضى، وقلدوا محمد أغا المسلمانى أغات مستحفظان، وعلى أغا الشعراوى والى الشرطة، وحسن أغا محرم أمين احتساب وذلك بإشارة أرباب الديوان فإنهم كانوا ممتنعين من تقليد المناصب لجنس المماليك، فعرفوهم أن سوقة مصر لا يخافون إلا من الأتراك، ولا يحكمهم سواهم، وهؤلاء المذكورون من بقايا البيوت القديمة الذين لا يتجاسرون على الظلم كغيرهم، وقلدوا ذو الفقار كتخدا محمد بك كتخدا بونابرته، ومن أرباب المشورة الخواجا موسى، كانوا وكلاء الفرنساوى، ووكيل الديوان حنابيبو" (١٤).

وهكذا نشأت فى مصر فى يوليو ١٧٩٨ المؤسسة الوطنية المصرية الأولى ذات الوضع العلمانى وفقًا لمرسوم تأسيسها والواجبات والالتزامات المنوطة بها وطبيعتها الأصيلة ودورها السياسى، ومع ذلك كانت هذه المؤسسة تدار من قبل فاعلين سياسيين تحت تأثير القوة العسكرية للمحتل الفرنسى.

وشكلت هاتان الوجهتان القومية المصرية خلال القرن التاسع عشر وحتى رحيل جيش بونابرت عام ١٨٠١، ومع ذلك هناك ثلاثة أحداث أوضحت حدود هذه التجربة "الديمقراطية الثورية" الفرنسية فى مصر:

- المولد النبوى.
- حادثة الجوكار Cocarde .
- استدعاء زوجة عثمان بك.

يعد المولد النبوى أهم ظاهرة سنوية إسلامية فى العالم الإسلامى، فالأمر لا يتعلق بالاحتفال بميلاد الرسول فحسب ولكن أيضًا بالاحتفال بظهور الدين "التام" (بالنسبة للديانات الأخرى)، وقد تحول المولد بطريقة جد غريبة ولاسيما فى مصر إذ جمع بين الممارسات الدينية القديمة والنشوة الشعبية فى بيئة جد دنيوية، وكانت هذه الاحتفالات تتم وسط دقات الطبول فى البلاد كافة، بيد أن أكبر احتفال يحاط بكل الأبهة الرسمية للدولة المصرية هو دون شك الذى يعقد فى يومنا هذا فى المشهد الحسينى حيث قبر الحسين حفيد الرسول وشهيد الإسلام فى قلب القاهرة الفاطمية.

وساعد بونابرت على إقامة سياسة إسلامية متماسكة، لذا اغتنم الفرصة فى ٢٤ أغسطس ليعلن رسميًا نقاط التماثل التى يراها بين الثورة الفرنسية والإسلام، فقد أثبت التطابق بين الطابع العمومى للإسلام ومبادئ المساواة والحرية والأخوة، وفى هذا الخط السلوكى الجديد لفرنسا تجاه الإسلام خرجت فرنسا من إطار "الجوار السلمى" الموروث عن معاهدة الامتيازات الأجنبية التى وقعها فرنسوا الأول وسليمان العظيم لتدخل ضمن دول "الجوار العملى". وكانت فرنسا فى عهد بونابرت تعامل الإسلام من الداخل فى جدلية جد منذرة ولما كان بونابرت يطمح إلى السيطرة على العالم القديم فقد بدا له الإسلام الأداة المتميزة لتحقيق غايته، لقد قرر أن يبنى إمبراطورية لنفسه منطلقًا من الصفر كما فعل تمامًا النبى محمد قبل ذلك باثنى عشر قرنًا.

وقد كان بونابرت غاية فى الصدق فى تعامله مع احتفال المولد النبوى:

> **كان كل شىء يسمح بافتراض أن بونابرت الذى كان محركًا لسياسة غربية وإسلامية متماسكة يرى فى هذه المظاهر عقيدة (إيمانًا) أكبر من دبوى Dupuy (حاكم القاهرة) الذى يصف هذه الأبهة الدينية فى مراسلاته مع صديقه ديفيل Deville التاجر بمدينة طولون بنبرة نقدية تتوافق دون شك مع الحالة الفكرية لأتباع القائد العام [١٥].**

والجنرال دبوى حاكم القاهرة الذى أخطأ من وجهة النظر العسكرية كان قد قام مع ذلك بتحليل سياسى جيد، وفيما يلى ما قاله الجبرتى:

> **وفيه: سأل صارى عسكر عن المولد النبوى، ولماذا لم يعملوه كعادتهم؟ فاعتذر الشيخ البكرى بتعطيل الأمور وتوقف الأحوال، فلم يقبل وقال: لابد من ذلك وأعطى له ثلاثمائة ريال فرنسى معاونة، وأمر بتعليق تعاليق وأحبال وقناديل، واجتمع الفرنساوية يوم المولد، ولعبوا ميادينهم، وضربوا طبولهم ودبابهم، وأرسل الطبلخانة الكبيرة إلى بيت الشيخ البكرى، واستمروا يضربونها بطول النهار والليل بالبركة تحت داره، وهى عبارة عن طبلات كبار مثل طبلات النوبة التركية وعدة آلات ومزامير مختلفة الأصوات مطربة. وعملوا فى الليل حراقة نفوط مختلفة وصواريخ تصعد فى الهواء" (١٦).**

إن الإسراف فى تفاصيل هذا الوصف يجعلنا نفترض أن المصريين قد تلقوا هذه المبادرة برضا كبير.

بيد أن دبوى لم يستشعر الأثر الإيجابى والفورى لهذا التصرف على الشعب، وبعيداً عن أحلام بونابرت الشرقية فقد شعر فى نشوة الاحتفال بتحفظ البعض كما شاهد مقاطعة البعض الآخر، ووجد نفسه فيما يطلق عليه باتريس برت Patrice Bret فى "موقف ترقب أو بالأحرى فى موقع للمقاومة السلبية" (١٧).

وسرعان ما وقعت ثورتان فى القاهرة أكدتا تحليله للموقف وفرضتا بصورة مؤقتة تجميداً لمشاريع بونابرت الإسلامية، وكانت النتيجة الهائلة التى كان يتوقعها بالتأكيد بونابرت هى نشأة القومية المصرية فى قلب الديوان نفسه، ولا يجب إغفال أثر المطالبات "الساخنة" لنابليون الذى كان يؤكد على الطابع الثقافى والجنسى المصرى الخالص فى مواجهة الجنس التركى - المملوكى الذى يعد عدو الفرنسيين والمصريين، أما القضية المعروفة باسم "حادثة الجوكار" فتحدد لنا بصورة واضحة أول تعايش بين الإسلام المصرى وجمهورية بونابرت.

ويسرد لنا الجبرتي: "وفيه: طلب صارى عسر بونابارته - المشايخ، فلما استقروا عنده - نهض بونابارته من المجلس ورجع بيده طيلسانات ملونة بثلاثة ألوان، كل طيلسان ثلاثة عروض أبيض وأحمر وكحلي، فوضع منها واحدًا على كتف الشيخ الشرقاوى، فرمى به إلى الأرض، وامتعض وتغير مزاجه، وامتقع لونه، واحتد طبعه. فقال الترجمان: يا مشايخ أنتم صرتم أحبابًا لصارى عسكر، وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته، فإن تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس، وصار لكم منزلة فى قلوبهم، فقالوا: لكن قدرنا يضيع عند الله وعند إخواننا من المسلمين، فاغتاظ لذلك، وتكلم بلسانه، وبلغ عنه بعض المترجمين أنه قال عن الشيخ الشرقاوى: إنه لا يصلح للرياسة ونحو ذلك. فلاطفه بقية الجماعة، واستعفوه من ذلك، فقال إن لم يكن ذلك فلازم من وضعكم الجوكار فى صدوركم، وهى العلامة التى يقال لها الوردة، فقالوا أمهلونا حتى نتروى فى ذلك، واتفقوا على اثنى عشر يومًا.

وفى ذلك الوقت حضر الشيخ السادات باستدعاء فصادفهم منصرفين، فلما استقر به الجلوس بش له وضاحكه صارى عسكر، ولاطفه فى القول الذى يعربه الترجمان، وأهدى له خاتمًا من الماس، وكلفه الحضور فى الغد عنده، وأحضر له جوكار أوثقه بفراجته، فسكت وسايره، وقام وانصرف. فلما خرج من عنده دفعه على أن ذلك لا يخل بالدين.

وفى ذلك اليوم: نادى جماعة القلقات على الناس بوضع العلامات المذكورة المعروفة بالوردة، وهى إشارة الطاعة والمحبة، فأنف غالب الناس من وضعها وبعضهم رأى أن ذلك لا يخل بالدين ،

ذا هو مكروه، وربما ترتب على عدم الامتثال الضرر فوضعها، ثم فى عصر ذلك اليوم نادوا بإبطاله من العامة، وألزموا بعض الأعيان، ومن يريد الدخول عندهم لحاجة من الحاجات بوضعها، فكانوا يضعونها إذا حضروا عندهم، ويرفعونها إذا انفصلوا عنهم، وذلك أيام قليلة، وحصل ما يأتى ذكره فتركت" (١٨).

وفى ١٤ يوليو ١٧٩٨ فى السابعة صباحًا ظهر بونابرت محاطًا برئيس أركانه وجنرالات جيشه ولأول مرة فى احتفالات الجمهور بشيوخ ديوان القاهرة وكبار الشيوخ مندوبى الأقاليم، وأمام لفيف كبير من المصريين قرأ المساعد العام بوييه **Boyer** خطاب بونابرت نيابة عنه بعد أن عدد انتصارات جيوشه قبل ذلك ببضعة شهور، واختتم بنبرة ثقة أراد بها قطعًا حشد الجموع الإسلامية لهذا الاحتفال العلمانى:

من كان يظن منذ عام أنكم ستصبحون اليوم على ضفاف النيل فى قلب القارة القديمة؟ أيها الجنود! إن قدركم جميل لأنكم جديرون بما قمتم به وبآراء الناس فيكم، إنكم تموتون بشرف كالشجعان المحفورة أسماؤهم على هذا الهرم أو تعودون إلى وطنكم تغطيكم أكاليل الأزهار وإعجاب الشعوب كافة [..] فمنذ خمسة شهور منذ ابتعدنا عن أوربا يفكر ٤٠ مليون مواطن فيكم! (١٩).

وأثبتت قضية إلقاء جنود بونابرت القبض على مصرية بطريقة بدهية – الخلفية الإشكالية لوجود الفرنسيين فى أرض الإسلام وهى خلفية ثقافية أكثر منها دينية.

وهذه المرأة المصرية الاستثنائية كانت سيدة غاية فى النشاط والذكاء والتأثير على المستوى السياسى فى مجتمع مغلق على تقاليد تهدف إلى نفى المرأة ومتعلق بصفة خاصة بالقضاء المنهجى على كل ما كان من شأنه أن يذكر بصورة مادية أو معنوية وجودها فى المجتمع، والست نفيسة زوجة على بك الكبير والصديقة الحميمة للإخوة ماجالون **des Magallon** قبل وصول جيوش بونابرت إلى مصر تزوجت مرة ثانية بعد

وفاة على بك من مديره الأساسى مراد بك المنافس التالى لبونابرت، وأملت عليها شجاعتها السياسية مع ذلك البقاء فى القاهرة بالرغم من هزيمة زوجها وجيشه المملوكى أمام بونابرت خلال معركة الأهرامات، أما مراد بك فقد هرب من العاصمة ليتحصن فى مصر العليا ..

ومن خلال روايات الإخوة ماجالون وبعض الرحالة كان نابليون قد كون بالفعل فكرة عن عظمة هذه المرأة المصرية وتصميمها ، وهددها بإنزال العقاب عليها، وقرر مينو بعد وفاة مراد فى ١٨ أبريل ١٨٠١ منحها إعانة معيشة تقدر بمائة ألف بارا منذ تلك اللحظة بدأت المرأة فى إثارة قلق لبونابرت بمحاولتها بث الفرقة بين القائد العام والعلماء، ويحكى لنا الجبرتى هذه القصة:

وفيه أرسل دبوى قائمقام إلى الست نفيسة، وطلب منها إحضار زوجة عثمان بك الطنبرجى، فأرسلت إلى المشايخ تستغيث بهم، فحضر إليها الشيخ محمد المهدى والشيخ موسى السرسى، وقصدوا منعها، فلم يمكنهم، فذهبوا بصحبتها، ونظروا إلى قصتها. والسبب فى طلبها أنهم وجدوا رجلاً فراشًا معه جانب دخان، وبعض ثياب، فقبضوا عليه وقرروه فأخبر أنه تابعها، وأنها أعطته ذلك، ووعدته بالرجوع إليها لتسلمه شبكى دخان وفروة وخمسمائة محبوب ليوصل ذلك إلى سيدة، فهذا هو السبب فى طلبها؛ فقالوا: وأين الفراش إلى بعد الغروب فلم يحضر، فقال لهم المشايخ دعوها تذهب إلى بيتها، وفى غد تأتى ونحقق هذه القضية. فقال دبوى: نونو، ومعناه بلغتهم النفى، أى لا تذهب، فقالوا له دعها تذهب هى ونحن نبيت عوضًا عنها، فلم يرض أيضًا، وعالجوا فى ذلك بقدر طاقتهم، فلما يئسوا تركوها ومضوا، فباتت عندهم فى ناحية من البيت وصحبتها جماعة من النساء المسلمات والنساء الإفرنجيات، فلما أصبح النهار ركب

المشايخ إلى كتخذا الباشا والقاضى، فركبا معا وذهبا إلى بيت صارى عسكر الكبير، فأحضرها وسلما إلى القاضى، ولم يثبت عليها شيء من هذه الدعوة، وقرروا عليها ثلاثة آلاف ريال فرنسية، وذهبت إلى بيت لها مجاور لبيت القاضى، وأقامت معه لتكون فى حمايته" (٢٠).

وبعد رحيل الفرنسيين حافظت الست نفيسة على علاقات ممتازة مع بونابرت، وكانت لقاءاتها العديدة مع سيبستيانى Sebastiani مبعوث بونابرت فى عام ١٨٠٤ ثم اتصالاتها بعد ذلك مع قناصل فرنسا دروفيتى وليسبس خير دليل على ذلك.

وبعد فترة من وفاة مراد بك تزوجت السيدة نفيسة من تمبورجى Tambourdji مؤكدة بذلك رغبتها فى الاضطلاع بدور سياسى والاستمتاع بثرواتهما الضخمة، وتثبت قضية الست نفيسة أيضًا تغيرًا ثقافيًا ضخمًا فى تقاليد العلماء الصارمة؛ فبدفاعهم بطريقة علنية ومادية عن امرأة مسلمة ضد رغبة الفرنسيين وذلك خلافًا لتقاليد البلاد، أعلن العلماء دخول مصر فى العصور الحديثة، ولم يقدروا على اتخاذ أى محاولة لمنع الثورتين الدمويتين اللتين وقعتا فى القاهرة وراح ضحيتهما حوالى مائة جندى فرنسى نذكر منهم حاكم القاهرة المل الجنرال دبوى، وهذا ما يؤكد ما اتفق على تسميته حدود تعاونهم مع بونابرت كما لو كان القدر قد أراد أن يضفى مصداقية على مشروعه الإسلامى بالقضاء على أحد أشد معارضيه، وقد استشاط نابليون غضبًا وبدأ يقدر حدود سلطة هؤلاء الشيوخ فى مجتمع تحفظه أصوله الإسلامية، ومن ثم قرر مواجهة مؤسسة المسجد، وأصدر مرسومًا فى ٢٢ أغسطس بإنشاء معهد مصر. ولم يكن نابليون قد وصل منذ ثلاثة شهور فى هذا البلد حتى أخذ موعدًا مع المستقبل.

الفصل الأول

(1) Cité par Yves Laissus, op. Cit., p. 19.

(2) Yves Laissus, op. Cit., p. 19.

(3) Historia No. 647, Nov. 2000, p. 52 - 53 et 58 - 59.

(٤) كانت الموارد الضريبية فى مصر فى البداية مسئولية الإنكشارية وفى المدن والقرى وكان الأمر يتعلق بنظام الالتزام.

(5) André Raymond, Egyptiens et Français au Caire, 1798 - 1801, Le Caire, IFAO, 1998, p. 14 - 15.

(6) Yves Laissus, op. Cit., p. 23.

(7) Ibid., p. 24.

(٨) خلال خمسة وعشرين عامًا فقط - من ١٧٤٤ إلى ١٧٦٥ - تم إنشاء اثنى عشر مسجدًا وأربع عشرة نافورة فى مدينة القاهرة وحدها.

(9) André Raymond (op. Cit., p. 28) donne une idée très précise de la puissance des cheikhs.

(10) André Raymond, op. Cit., p. 31 - 32.

(١١) عجائب الآثار فى التراجم والأخبار. نشرت ترجمتها إلى اللغة الفرنسية عام ١٩٧٩ بدار نشر ألبان ميشيل - بمقدمة قيمة لجان تولار - وهذه الترجمة لجوزيف كيوك Joseph Couq هى الترجمة الثانية خلال قرنين.

(١٢) عبد الرحمن الجبرتى - عجائب الآثار فى التراجم والأخبار - عبد الرحمن الجبرتى - ج٣ - لجنة البيان العربى - الطبعة الأولى ١٩٦٤ ص ٣٠٠ .

(١٣) يقول الجبرتى إن الأمير (محمد بك الألفى) كان قد "أنشأه فى السنة الماضية وزخرفه وصرف عليه أموالاً عظيمة، وفرشه بالفرش الفاخرة. وعند تمامه وسكناه فيه حصلت هذه الحادثة، فأخلوه وتركوه بما فيه، فكأنما كان يبنيه لأمير الفرنسيس".

(١٤) نفس المصدر ص ٣٠١ - ٣٠٢ .

(١٥) يقول دبوى: نحن نحتفل هنا بحماس بأعياد محمد ونحن نخدع المصريين بتظاهرنا بالتمسك بدينهم الذى لا يؤمن به بونابرت وكذلك نحن. أندريه ريمون - المصدر الوارد - ص ١٠٧.

(١٦) عبد الرحمن الجبرتي – نفس المصدر – ص ٢١٠ .

(17) Patrice Bret, L'Egypte au temps de l'expédition de Bonaparte 1798 - 1801, Paris, Hachette, 1998, p. 113.

(١٨) عبد الرحمن الجبرتي – نفس المصدر – ص ٢١٢ – ٢١٣ .

(19) J. Benoist - Méchin, Bonaparte en Egypte ou le rêve inassouvi, p. 145.

(٢٠) عبد الرحمن الجبرتي نفس المصدر ص ٢١٧ .

الفصل الثانى

المعهد فى مواجهة المسجد

بغية الاستيلاء على مصر، يتعين خوض ثلاث
حروب:
الأولى ضد إنجلترا والثانية ضد الباب العالى
والثالثة - وهى أصعبها -
ضد المسلمين الذين يشكلون شعب هذا البلد.

هذه الجملة الشهيرة التى تحدث عنها فولنى كانت كثيراً ما تلح على ذهن بونابرت ولا سيما بعد الثورتين الداميتين اللتين وقعتا بمدينة القاهرة. وإذا كان موقف شيوخ الأزهر العظيم والشهم قد أوضح بما لا يدع مجالاً للشك حدودهم السياسية من ناحية، وضرورة استخدام القوة من ناحية أخرى فإن نابليون كان يعتمد بصورة أساسية على التحول الثقافى للبلاد بفضل سياسة تؤدى إلى تغيير العقليات من القاعدة إلى القمة، سياسة تأخذ فى الاعتبار الاتصال الإنسانى بالشعب. وبعد كارثة أبو قير تعين على العلماء الاضطلاع بدورهم الأساسى لضمان بقاء جيش من ٣٠ ألف رجل على قيد الحياة فى بلد مناهض لهم.

وهكذا كما قلنا أصدر نابليون مرسومًا فى ٢٢ أغسطس بتأسيس المعهد المصرى، وكان ذلك مشروعًا قديمًا نص عليه القرار السرى لحكومة المديرين بتاريخ

٥ مارس ١٧٩٨ الذى تم بمقتضاه التصريح لبونابرت باصطحاب لجنة علوم وفنون إلى مصر بهدف "تحسين أقدار المصريين".

وهؤلاء الرجال البالغ عددهم ١٦٧ طلب إليهم مغادرة أسرهم ووطنهم خلف الجنرال المنتصر دون أن يعرفوا تحديداً دورهم أو وجهتهم، وكانوا جميعاً على صورة قائدهم: شباب وممتلئين بالحماس وثوريين ورومانسيين .. وكان أصغرهم سناً هو فيبار Viard الذى كان يبلغ من العمر خمسة عشر عاماً، واجتاز اختباراته فى المعهد - الذى أصبح عضواً به فيما بعد - تحت رعاية الجنرال، أما أكبرهم سناً فكان جان مارسيل فنتور دى بارادى Jean - Marcel Venture de Paradis وكان عمره سبعة وخمسين عاماً، ولعب دور الموجه الخفى لحب نابليون للإسلام والواجهة الرمزية للاستشراق الفرنسى فى القرن الثامن عشر ولقى حتفه فى الشرق تحت أسوار عكا بين يدى بونابرت. وهذا الأخير الذى كان فى التاسعة والعشرين من عمره احتفل بعيد ميلاده الثلاثين فى محل إقامته المنيف بالقاهرة بقصر الألفى بك على بركة الأزبكية.

وقد عرفنا كيف شكل بونابرت أول ديوان للجمهورية ولنر الآن كيف نجح فى "غارته العلمية" لأن العملية لم تكن قط بسيطة.

ولم يعرف سر الحملة إلا عدد بسيط من الرجال مثل العالم الكبير مونج Monge الذى اشتهر بأبحاثه فى مجال الكيمياء والذى كان موضع سر بونابرت وأبا العلماء فى مصر، وكفاريلى Caffarelli هذا الجنرال الذى عاش فى مونبيليه Montpellier ذو الأصول الإيطالية والذى كان يستخدم بشغف العلوم العسكرية والمعارف العلمية ولعب دوراً هاماً فى تاريخ الحملة، وكانت له ساق مبتورة ولذا أطلق عليه المصريون جنرال أبو خشبة، وتوفى فى ٢٧ مارس ١٧٩٩ فى عكا مثل فنتور دى بارادى بعد أن فقد أحد ذراعيه [١]. والكيميائى برتوليه Berthollet والذى اشتهر بوضعه طريقة للتبيض عن طريق استخدام مادة الكلور والذى أصبح رئيس اللجنة المكلفة فى ١٨٠٢ بإعداد "وصف مصر".

وحظيت مكتبتان ومطبعتان بعناية فائقة من بونابرت .. بداية مكتبته الشخصية وهى مكتبة صغيرة لمعسكر مكونة من مجلدات قطع ١٨؛ وقد طلب القائد العام من

سكرتيره بوريان Bourienne قائمة مفصلة بالعناوين الستين المقسمة إلى ست تخصصات: علوم وفنون، جغرافيا ورحلات، تاريخ، شعر، قصة، سياسة وأخلاق. وفى كتابه العظيم "مصر .. مغامرة علمية" يبرز لنا إيف لاسوس الاختيار الانتقائى لكتب مكتبة نابليون الكبيرة.

> **تعد اختيارات القائد العام الشاب هى الاختيارات التى يمكن غالبًا - وليس دومًا - توقعها. ففى مجال التاريخ - وهو المجال السائد فى المكتبة - تم جمع أعمال كبار الزعماء العسكريين مثل تورين Turenne وكونديه Condé ولكسمبورج وموريس دى ساكس وفردريك الثانى والأمير هيوجين Eugène وكذلك بطبيعة الحال الكلاسيكيات من أعمال بلوتارك Plutarque وتاسيت Ta-cite بالإضافة إلى بعض كتب المناسبات مثل تاريخ فرسان مالطة لرينيه فيرتو René Vertot و"تاريخ فلسفى .. لمنشآت الأوروبيين فى الهند" للقس رينال Reynal وأكثر ما كان يثير الدهشة بالنسبة لهذه المكتبة هو الندرة النسبية لكتب العلوم الخالصة: "الحوارات حول تعددية العوالم" لفونتينال Fontenelle، و"رسائل إلى أميرة ألمانية" لليونار أولر Léonard Euler، وحصص مدرسة المعلمين فقط .. وفى مجال الأدب تم الاتفاق على العناوين التالية: فيرجيل Virgileوهوميروس Homère، ولافونتين La Fontaine وأوشيان Ossian وتيليماك Télémaque وفولتير بروايته "إيلويز الجديدة" La Nouvelle Eloise وفيرتير Werther . والسؤال الذى يثور هو السبب فى وضع أربعين مجلدًا فى مجال "الروايات الإنجليزية"؟ وأراد أيضًا نابليون بعض العناوين فى مجال الجغرافية وقصص الرحلات (ولاسيما لكوك Cook)بالإضافة إلى التوراة والقرآن وكتب الهندوس الأربعة و"روح القوانين" (٢).**

وقام كافاريلى بالإشراف على حفظ الكتب فى علب كبيرة من خشب البلوط مبطنة بقماش من الصوف الثقيل وتمت صناعة العلب فى شكل رفوف مكتبة مع الأخذ فى الاعتبار حجمها، وتم تسجيل كل العناوين فى مجلد بترتيب أبجدى وموضوعى ولذا كان من اليسير تحويل هذه العلب إلى مكتبة فى أى مكان. ويشير إيف لاسوس إلى حصول كافاريلى على مطبعة الجمهورية وكذلك كتب الرحلات إلى الهند لهويل Howell ولى جانتى Le Gentil و"أطلس البنغال" لميجور رينال Rennel [٣] . وقد حظى الأدب اليونانى بمكانة متميزة فى هذه المكتبة ولاسيما الإلياذة والأوديسة وكذلك كل أعمال شكسبير ورابليه Rabelais ومونتانى Montaigne وروسو.

وشكلت المكتبة الثانية المخصصة لأفراد الحملة السلاح الأول لمعهد مصر الذى تم إنشاؤه بعد ذلك، وتحت قيادة كافاريلى أيضًا تم تعيين ثلاثة أشخاص لتشكيلها: بوريان وأرنو وجان باتيست ساى Jean-Baptiste Say، وتم شراء والاستيلاء على خمسمائة مجلد من مختلف التخصصات ولاسيما خرائط أنفيل Anvilleالشهيرة.

وفيما يتعلق بالطباعة طلب نابليون من المطبعة القومية طاقم حروف المطبعة العربية، وقد يكون المراقبون قد اكتشفوا عن طريق هذا الطلب خطًا لسياسة عربية وهم الذين كانوا يتساءلون دومًا عن مصير الحملة التى ينظم لها قاهر إيطاليا. وكلف مونج بتحميل المطبعة العربية الخاصة بدعاية الفاتيكان على المركب الإمبراطورى، ويورد لنا إيف لاسوس مذكرة كافاريلى التى يعدد فيها كل مصروفات التجهيزات المخصصة لمعهد مصر المستقبلى، ويبدو من المناسب فى هذا الصدد ذكرها بصورة كاملة:

١- أجهزة فلكية	٥٥٣٤ جنيهًا
٢- معدات طبوغرافية	٩٥٠٨
٣- فيزياء	٣٢٤٥
٤- أدوات كيمياء	٢١٧٩٠٥
٥- أدوات وأجهزة أخرى خاصة بالمناطيد	١٥٨١٤٠

٦- أدوات وأجهزة أخرى خاصة بالتاريخ الطبيعى	١٢٧٧
٧- أدوات وأجهزة أخرى خاصة بالجراحة	٢٨٠٤
٨- أدوات وأجهزة أخرى خاصة بالصيدلة	١٢٣٣٥٥
٩- أجهزة وأدوات مختلفة	١٤٥٠٥٠
١٠- أجهزة متعلقة بالطباعة	١٠١٦١١٣٨
١١- شراء كتب لتكوين المكتبة التى سيتم شحنها على أسطول طولون	٢٥٣٢٩١٠
١٢- مصاريف نقل وتغليف	٦٨١٢٠٦
١٣- مصاريف مكتبية	٨٥٢٤٦٦
المجموع	٧٩٦٣٩٧٠٥ (٤)

وتم تعيين المستشرق الشاب جان جوزيف مارسيل رئيسًا لهذه المطبعة الأولى على أرض مصر أو بالأحرى فى الشرق بأسره.

وتم التصريح لمطبعة خاصة ثانية يملكها المدعو مارك أورال Marc Aurel بالانضمام للحملة، ولعبت دورًا هامًا فى القاهرة قبل بيعها للجيش محليًا.

وكان قد بدأ سرًا نعت هؤلاء العلماء "بالمصريين"، وكثيرًا ما تم الحديث عن سر وجهة الحملة، ولكن إذا ما أمعنا النظر سنجد أنه بالإضافة إلى جريدة المونيتور Moniteur التى عينت فى الأول من أبريل ١٧٩٨ مصر كوجهة محتملة للجيش الذى يتم إعداده فى طولون والذى لن يقوده سوى بونابرت، يورد لنا إيف لاسوس أن برسفال Parseval عندما اقترح تقديم خدماته لآرنو صرخ قائلاً: "سترحلون إلى مصر، والجميع يعلم ذلك، ولن أضيق ذرعًا بزيارة مصر (٥)".

ومن ثم يبدو من السهل فهم السبب فى توجه أسطول نلسون على الفور صوب مرسى الإسكندرية الذى وصل قبل وصول الأسطول الفرنسى بحوالى ثمان وأربعين ساعة.

وكلف أرنو بملاحظة المكتبة على متن السفينة الإمبراطورية "الشرق". وتعاون مع مونج وبرتوليه وكافاريلى النديم الرئيسى للقائد العام. وكان حديثهم خلال عبور البحر المتوسط يدور حول أبطال هوميروس ولاسيما حول هانيبال Hannibal، وكان القائد العام يمضى أمسيات طويلة مع فونتور دى بارادى يتحدثان فيها عن الإسلام ورسوله، ولم تكن الموضوعات الأخرى تثير اهتمامه، فقد كانت هذه الأحاديث نوعًا من المناظرة الشفوية تهدف فى المقام الأول إلى الانتصار فى المناقشة. ومذكرًا أمسيات النقاش على متن السفينة "الشرق" كتب مونج فيما بعد: "تعد هذه السفينة عالمًا".

وبعد ثمانية أيام فقط من دخول القاهرة كلف بونابرت فى ٢ أغسطس فرسانه الملكيين الثلاثة مونج وكافاريلى وبرتوليه بالبحث عن دار لوضع المطبعة والمعدات العلمية ولاسيما المكتبة ومعمل الكيمياء ومختبر الفيزياء.

وأقاموا معهدهم بحى الناصرية الذى يبعد حوالى كيلومترين عن مركز القيادة فى منازل أنيقة تركها الأمراء المصريون الهاربون وهم حسن بك الكاشف وقاسم بك وعلى يوسف والشهير إبراهيم السنارى، والحق أن منزل هذا الأخير هو الوحيد الذى صمد فى وجه الزمن والثورات التى اندلعت فى القاهرة وقنابل بونابرت .. وقد رمم المنزل الفرنسى برنار مورى Bernard Maury عام ١٩٩٨ بمناسبة الاحتفال بمرور مائتى عام على حملة بونابرت.

وفى ٢٢ أغسطس عقد المعهد – المقام فى قصر حسن الكاشف – أولى جلساته واختير مونج رئيسًا وفورييه Fourier أمينًا دائمًا وتم تعيين بونابرت نائبًا للرئيس، وبعد خطاب مونج، قدم بونابرت مداخلة لاقتراح الخطوط العريضة لأبحاث العلماء من خلال ستة أسئلة:

– ما وسائل توفير الوقود السائل فى أفران الجيش ؟

– هل هناك وسائل لاستبدال نبات الجنجل فى صناعة البيرة ؟

– ما وسائل تجديد مياه النيل وتنقيتها ؟

– ما الأنسب بناؤه: طواحين مياه أم طواحين هوائية ؟

– هل تحتوى مصر على موارد لإنتاج البارود ؟

- ما وضع النظام القضائى والتعليم فى مصر ؟ (٦)

وكان باقى أعضاء اللجنة موزعين على أربعة أقسام:

قسم الرياضيات:

بونابرت ، فورييه، كوستاز Costaz، نوويه Nouet، كونو Quenot، جى- أم- لوبير J-M Lepère، جـيـرار Girard، لوروا Le Roy، أندريوسى Andréossy، سـيـه Say، مالوس Malus، مونج.

قسم الفيزياء:

برتوليه، دولومييو Dolomieu، كونتيه Conté، جوفروا سانت - هيلير Geoffroy Saint-Hilaire، ديكوتيل Descotils، سـافـينى Savigny، أ. دوبوا A.Dubois، ديجـينيت Desgenettes، ج. ب. شامبى J. P. Champy، آل رفينو-ديليل Al. Raffeneau-Delile.

قسم الاقتصاد السياسى:

كافاريلى، جلوتييه Gloutier، سوسى Sucy، سولكوفسكى Sulkoivski، تاليان Tallien، بوسيلج Paussielgue .

قسم الأدب والفنون:

بارسيفال جرانميزون Parseval Grandmaison، فينتور دى بارادى، نورى Norry، دوترت Duterte، فيفان دونون Vivant Denon، ريجيل Rigel، هـ. ج. رودوته H. J. Re-douté، دوم رفائيل دى موناشيس dom Raphael de Monachis، ريجو Rigo(٧) .

وأصدر بونابرت أوامره بإنشاء جريدتين كان لهما أثر كبير فى الشرق: "لا ديكاد إيجيبسيان (العشرية المصرية) La Décade Egyptienne" التى كان يحررها أعضاء المعهد تحت إدارة تاليان Tallien و"لوكوريه ديجيبت Le Courrier d'Egypte" (بريد مصر) التى ظهر عددها الأول بعد ذلك بستة أيام فى ٢٩ أغسطس، ولا شىء يمنعنا من الاعتقاد بأن بونابرت قد فكر فى إصدار جريدة عربية، ولكن الظروف والأولويات والوقت لم تتح له الفرصة ونفذ القائد مينو فيما بعد هذه الفكرة.

ومن الأهمية بمكان التأكيد على الوجود المصرى السرى فى قسم الأدب والفنون الممثل فى دون رفائيل موناكيس Don Raphael Monachis، وهو قبطى مصرى وليس رساماً سورياً كما يقول عنه بعض المؤرخين .. والواقع أنه كان شخصية مؤثرة ومليئة بالحماس ولعب دوراً غريباً فى تاريخ العلاقات الفرنسية المصرية بعد عودة بونابرت إلى فرنسا. واستطاع بفضل شجاعته البقاء فى مصر بعد رحيل جيش الشرق، وواجه إهانات الشعب وأرسله المماليك الذين كانوا يقدرون مواهب هذا الشخص المصرى متعدد اللغات فى بعثة مهمة لدى بونابرت الذى كان قد أصبح قنصلاً أول .. وكان ذلك أول اتصال دبلوماسى بين مصر وفرنسا فى تلك الفترة الصعبة. وأعرب سراً عن أمله فى البقاء فى فرنسا واستحدث من أجله بونابرت فى ١٨٠٢ مقرراً تكميلياً يطلق عليه "العربية العامية" بمدرسة اللغات الشرقية. والمؤكد أن بونابرت كان يهدف من استحداث هذا المنهج إدخال اللغة المصرية فى الدراسات الشرقية معالجاً بهذه الطريقة ضعف لغة مستشرقيه العربية.

ويقول ج. ج. مارسيل J. G. Marcel مدير المطبعة العربية للحملة ذلك صراحة:

> **عندما وصلت إلى الإسكندرية – وكان ذلك منذ حوالى أربعين عامًا – (كتب عام ١٨٣٧) رغمًا عن أننى كنت تابعت فى باريس بكثير من الحماس ودون نتيجة ملموسة أكثر أساتذة اللغات الشرقية فقهًا (يقصد لنجليه Langlès ودى ساسى de Sacy) فقد أدركت بخيبة أمل أننى لا أستطيع التعبير عن نفسى بصورة**

سليمة ليفهمنى الخدم العرب ولم أكن أفهمهم أنا نفسى .. ومع ذلك كان الشيوخ وعلماء المدينة - المتعمقين فى اللغة الفصحى - يفهموننى بطريقة أيسر، ولكنهم كانوا يقولون لى إننى أتحدث كما لو كنت كتابًا (٨).

وضاق المستشرق الكبير سيلفستر دى ساسى من طلب نابليون ذاك وكتب - كما يروى لنا دانيل ريج - Daniel Reig لوزير الداخلية: " إن منحى مساعدًا إنما يعنى منح شهادة عجز" (٩).

وفى ذلك الوقت كان كل ما يهم بونابرت هو أن يجعل من دون رفائيل معبرًا يستطيع أن ينقل عبره علماء الأزهر من الديوان إلى المعهد ! وكان دون رفائيل فى آن واحد مترجم الديوان وعضوًا فى المعهد وقريبًا من العلماء - وقد ذكر الجبرتى ذلك مرارًا -. وكانت وفاة فنتور دى بارادى فى عكا وصعوبات اللغة العربية التى يعانى منها ج. مارسيل J. Marcel قد جعلت من دون رفائيل مرشدًا ممتازًا لبونابرت فيما يتعلق بالتطور من عقلية إلى أخرى أو من لغة إلى أخرى. وكان هذا هو علة استحداث القنصل الأول لهذا المنصب وتعيين هذا الراهب المصرى الصغير فيه غداة لقائهما فى باريس فى ١٨٠٣ ولم يكن سلك هذا المعبر شيئًا يسيرًا بالنسبة للعلماء. فكان عليهم أن يظهروا الكثير من الفضول وحب المعرفة للتردد على قصر حسن الكاشف لاكتشاف الوجه الآخر للغرب ولفرنسا وللجمهورية الفرنسية أى وجه العلم الحديث.

وكتب المؤرخ المصرى صفحات رائعة عن هؤلاء العلماء "المصريين" ومكتبتهم وعلمائهم فى مجال الفيزياء، وأطبائهم وعلمائهم فى مجال الفلك ورساميهم. والحق أن شهادته عن مغامرة بونابرت العلمية غير معروفة فى فرنسا. ويكشف اجتياز معبر الأزهرى دون رفائيل الإغراء الذى كان يمثله المعهد بالنسبة لعلماء الديوان. وسرعان ما تحول هذا الإغراء (الذى سنحلله فى الفصل التالى) إلى إيمان بضرورة اقتباس علوم الشرق للتواجد بصورة تامة فى عالم فى حالة تغير حاد، وبينما كان الوقت قد حان بالنسبة للشيوخ لاقتباس طرق الغربيين فى الحياة قرر العلماء أيضًا التأقلم على الأسلوب المصرى.

وسريعًا ما وضعت ثورة القاهرة الأولى الجميع أمام حدوده، ويرسم لنا الجبرتى صورة قاتمة تستحق منا نقلها كاملة:

"وأصبحوا يوم الأحد متحزبين، وعلى الجهاد عازمين، وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب والكفاح، وحضر السيد بدر وصحبته حشرات الحسينية، وزعر الحارات البرانية، ولهم صياح عظيم وهَمّ جسيم ويقولون بصياح فى الكلام: نصر الله دين الإسلام. فذهبوا إلى بيت قاضى العسكر، وتجمعوا وتبعهم ممن على شاكلتهم نحو الألف والأكثر، فخاف القاضى العاقبة، وأغلق أبوابه وأوقف حجابه، فرجموه بالحجارة والطوب وطلب الهرب، فلم يمكنه الهروب، وكذلك اجتمع بالأزهر العالم الأكبر وفى ذلك الوقت حضر ديوى بطائفة من فرسانه وعساكره وشجعانه فمر بشارع الغورية، وعطف على خط الصنادقية، وذهب إلى بيت القاضى فوجد ذلك الزحام، فخاف وخرج من بين القصرين وباب الزهومة، وتلك الأخطاط بالخلائق مزمومة، فبادروا إليه وضربوه، وأثخنوا جراحاته، وقتل الكثير من فرسانه وأبطاله وشجعانه، فعند ذلك أخذ المسلمون حذرهم وخرجوا يهرعون، ومن كل حدب ينسلون، ومسكوا الأطراف الدائرة بمعظم أخطاط القاهرة: كباب الفتوح وباب النصر والبرقية، إلى باب زويلة وباب الشعرية وجهة البندقانيين ، وما حاذاها ، ولم يتعهدوا جهة سواها وهدموا مساطب الحوانيت، وجعلوا أحجارها متاريس للكرنكة، لتعوق هجوم العدو فى وقت المعركة، ووقف دون كل متراس جمع عظيم من الناس.

وأما الجهات البرانية والنواحى الفوقانية فلم يفزع منهم فازع، ولم يتحرك منهم أحد ولم يسارع، وكذلك شذ عن الوفاق مصر

العتيقة وبولاق، وعذرهم الأكبر قربهم من مساكن العسكر، ولم تزل طائفة المحاربين فى الأزقة متمرسين، فوصل جماعة من الفرنساوية، وظهروا من ناحية المناخلية. وبندقوا على متراس الشوائين، وبه جماعة من مغاربة الفحامين، فقاتلوهم حتى أجلوهم، وعن المناخلية أزالوهم، وعند ذلك زاد الحال وكثر الرجف والزلزال، وخرجت العامة عن الحد، وبالغوا فى القضية بالعكس والطرد، وامتدت أيديهم إلى النهب والخطف والسلب، فهجموا على حارة الجوانية، ونهبوا دور النصارى الشوام والأروام، وما جاورهم من بيوت المسلمين على التمام، وأخذوا الودائع والأمانات، وسبوا النساء والبنات، وكذلك نهبوا خان الملايات وما به من الأمتعة والموجودات وأكثروا من المعايب، ولم يفكروا فى العواقب، وباتوا تلك الليلة سهرانين، وعلى هذا الحال مستهرين. وأما الإفرنج فإنهم أصبحوا مستعدين وعلى تلال البرقية والقلعة واقفين، وأحضروا جميع الآلات من المدافع والقنابر والبنيات، ووقفوا مستحضرين، ولأمر كبيرهم منتظرين، وكان كبير الفرنسيس أرسل إلى المشايخ مراسله فلم يجيبوه عنها، ومل عن المطاولة. هذا والرمى متتابع من الجهتين وتضاعف الحال ضعفين، حتى مضى وقت العصر، وزاد القهر والحصر، فعند ذلك ضربوا بالمدافع والبنيات، على البيوت والحارات وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر، وجرروا عليه المدافع والقنبر، وكذلك ما جاوره من أماكن المحاربين: كسوق الغورية والفحامين، فلما سقط عليهم ذلك ورأوه، ولم يكونوا فى عمرهم عاينوه. نادوا يا سلام من هذه الآلام، يا خفى الألطاف نجنا مما نخاف، وهربوا من كل سوق، ودخلوا فى الشقوق وتتابع الرمى من القلعة والكيمان حتى تزعزت الأركان، وهدمت

فى مرورها حيطان الدور، وسقطت فى بعض القصور، ونزلت فى البيوت والوكائل، وأصمت الآذان بصوتها الهائل. فلما عظم هذا الخطب، وزاد الحال والكرب، ركب المشايخ إلى كبير الفرنسيس ليدفع عنهم هذا النازل، ويمنع عسكره من الرمى المتراسل، ويكفهم كما انكف المسلمون عن القتال، والحرب خدعة وسجال. فلما ذهبوا إليه، واجتمعوا عليه عاتبهم فى التأخير، واتهمهم فى التقصير، فاعتذروا إليه فقبل عذرهم، وأمر برفع الرمى عنهم، وقاموا من عنده وهم ينادون بالأمان فى المسالك" (١٠).

كما لو كان المسجد ينفصل عن علمائه الذين اجتذبهم المعهد، ورفض المسجد يد بونابرت الممدودة إليه وتجاهل أبواب المعهد المفتوحة أمامه. وانسحب آلاف الثوار القاهريين صوب منازل العلماء فى الناصرية. واقترح البعض الاعتصام بسرعة بمقر القيادة بالأزبكية، ولكن رفض مونج ذلك بإصرار لأن الانسحاب كان من شأنه أن يؤدى إلى نهب المكتبة والمعامل .. ولذا قرر مونج مع برتوليه ومجموعة أخرى الدفاع عن أنفسهم، وظل هذا العمل الذى قام به مونج مسجلاً فى حوليات حملة بونابرت.

ويحفظ التاريخ عن هذا الصدام العنيف بين الثقافتين رفض المسلمين للغرب وعلمه. ومن ناحية أخرى لم يمنعهم قمع نابليون الدموى من تكرار الثورة حتى حصلوا على النصر عندما طردوا الفرنسيين تماماً بمساعدة جلاديهم القدامى من العثمانيين.

وفى المقابل استبقى التاريخ أيضاً قدرة المعهد على الاجتذاب والتى مارسها بصورة كبيرة على العلماء. وتشكل تاريخ تحديث مصر والعالم العربى فى القرن التاسع عشر كله حول نواة قوية من العلماء ذوى الأصل المصرى الذين كانوا على يقين بالدور التاريخى الذى لعبه القدر وساعده فيه بونابرت . وهذا الأثر الكبير للحملة لا يمكن فهمه إلا عن طريق مسلك الجبرتى وبعض رفاقه إزاء تواجد الفرنسيين فى القاهرة.

الهوامش

(١) كان كافاريلى قد فقد إحدى ساقيه فى أوربا، وهذا ما كان يدفع بالجنود فى الأوقات العصيبة التى كانوا يحلمون فيها بالعودة إلى الوطن – ليقولوا عنه "إن جزءًا من هذا الرجل موجود فى فرنسا".

(2) Yves Laissus, l'Egypte, une aventure savante, 1798 - 1801, Paris - Fayard, 1998, p. 35.

(3) Ibid., p. 36.

(4) Ibid., p. 39.

(5) Ibid., p. 52.

(6) J. Benoist-Méchin, Bonaparte en Egypte ou le rêve inassouvi, op. Cit.

(7) Yves laissus, op. Cit., p. 109.

(8) Cité par Daniel Reig, Homo Orientaliste, Paris, maisonneuve et larose, 1988, p. 155.

(9) Idem.

(١٠) عبد الرحمن الجبرتى – المصدر المذكور – ص ٣٣٠ – ٣٣٢ .

الجزء الثالث

اعتناق الإسلام

"أى محمد، سبق السيف العذل .. سيصل الفرنسيون إلى أرض مصر ويغزونها ، ولم تعد لدى القدرة لمنعهم .. ولكن فلتطب نفسًا؛ فقد قررت أن يتحول هؤلاء الغزاة إلى أتباع لك"

حوار دعائى خيالى للحملة

جريدة لوكورييه ديجيبت

Le Courrier d'Egypte

العدد ٢١، ١٧٨٩

الفصل الأول

الجبرتي: مصرى لدى بونابرت

أخذ الصدام الثقافى بين الفرنسيين والمصريين أشكالاً عدة ومجالات مختلفة. ولكن إذا كنا نعنى بكلمة "صدمة" الدهشة عند اكتشاف الآخر وواقعه المختلف، يمكننا التأكيد بأن الزيارات التى أجراها شيوخ الأزهر لمعامل علماء الحملة تعد أحد أسباب هذه الدهشة.

بداية لأن هذه الصدمة وقعت بعد الصدمة السابقة – صدمة السلاح – وكانت الصدمة الثانية نتيجة للأولى، ومثلت الصدمة الثانية بالنسبة للجانبين البرهان البدهى على حدود استخدام السلاح .. ففى نهاية المطاف، حتى يتسنى للقاهر والمقهور أن يتعايشا، كان من اللازم إيجاد حوار آخر. وبعد ذلك لأن علماء الحملة الذين ظلوا يعانون لفترة طويلة من عدم اكتراث جنود الحملة بهم وجدوا أنفسهم – غداة دخول نابليون منتصراً فى القاهرة – مدفوعين فى الواقع السياسى الجديد ومنوطًا بهم مهمة "مقدسة" إزاء رجال الدين المصريين بل إزاء الحضارة الإسلامية كلها.

والعجيب أن الانتصار الحقيقى لبونابرت على أتباع دين محمد كان ذا طبيعة ثقافية لا عسكرية. وهذا ما يبرهن عليه بصورة كبيرة المصير الأخير الذى لاقاه جيش بونابرت. هل يمكن لنا أن نرى فى "دهشة" علماء الدين المصريين تلك أولى علامات اعترافهم بقدرة الغرب والمسيحية التى كانت الطبقة التركية المملوكية تشعر تجاهها بالازدراء؟ كيف عبرت "دهشة" المصريين فى معامل العلماء الفرنسيين عن اتساع نطاق هذه "الصدمة" ؟

ومن الأهمية بمكان معرفة أن علماء الدين المصريين قد تغيروا تمامًا غداة خروجهم من معامل الفرنسيين، فقد أدركوا حجم الهوة التى تفصلهم لا عن العلوم الجديدة فحسب ولكن عن عالم بأسره أجبروا مواطنى بلادهم بعد ذلك على اكتشافه .. عالم مختلف عن عالم "السلطان" "مولانا"، عالم مختلف له حدود مختلفة عن تلك التى وضعها العامل الدينى والتى ظلوا يعلمونها وينقلونها من جيل إلى جيل .. وفى العالم الجديد الذى عرفوه كان هناك مجال لوجود ما هو "غير دينى" دون أن يكون حرامًا أو "مدنسًا".

وقد فهم العلماء المصريون وعلى رأسهم الجبرتى أن شيئًا لن يبقى على حاله. فقد برهن الصراع الحربى ضد بونابرت أن العثمانيين والمماليك كانوا قابلين للهزيمة وأوضح كذلك السيطرة البغيضة التى فرضوها على مصر منذ ثلاثة قرون، وهذا هو السبب فى أنهم عايشوا بقوة جلسات الديوان التى مثلت بالفعل تجربتهم الديمقراطية الأولى كما شكلت ميلاد أول إدارة مصرية بمعنى الكلمة منذ عصر الفراعنة.

وتمثلت النتيجة الأولى لهذا الصراع الثقافى فى الاعتراف بالشعب كأعظم قوة على الساحة المصرية كقوة مماثلة للأتراك والمماليك، ولكن تمثل الفارق فى هزيمة بونابرت لهؤلاء الأخيرين. ودعا بونابرت العلماء المصريين – ممثلى الشعب – لإدارة بلدهم وسريعًا ما أخذوا زمام الأمور بين أيديهم وأجبروا – خلال السنوات السبع التالية – بونابرت على الرحيل كما أجبروا الباب العالى على مصادقة اختيارهم لحاكم جديد هو محمد على. وعندما وصل محمد على إلى الحكم شرع فى عملية واسعة لتحديث مصر، وهو أمر لم يكن ليتخيله أحد عشية وصول بونابرت إلى مصر. وأجرى محمد على هذا التغيير بمساعدة العلماء معتمداً النموذج الفرنسى .. ولم يكن التاريخ بمثل هذه المنطقية قط ..

وكانت "الدهشة" الأولى من جانب رجال الدين المصريين هى الدافع لانقلاب ثقافى غير مسبوق فى الأراضى الإسلامية .. وهؤلاء "المندهشون" الموقرون المصريون حولوا بلادهم على الطراز الفرنسى، هؤلاء الذين ينتمون إلى جيل شيوخ الأزهر الذين جاوروا

علماء بونابرت الذى دعاهم بحرارة لحضور جلسات المعهد. ومن بين هؤلاء الشيوخ نذكر الشيخ الجبرتى وهو الوحيد الذى قرر كتابة يوميات عن الحملة وهو الوحيد كذلك الذى نقل شهادة رائعة عن هذه الفترة من التاريخ المشترك لمصر وفرنسا إلى الأجيال التالية.

وكان الجبرتى وهو أحد أعيان القاهرة يبلغ من العمر خمسة وأربعين عامًا (حيث ولد عام ١٧٥٤) عندما شارك فى تجربة غريبة للعلم الغربى تمثلت فى إطلاق بالون .. إن هؤلاء الفرنسيين الذين لم يرضوا باحتلال أراضى المصريين شرعوا بأساليبهم الخيالية فى غزو سمائهم .. ولنعط الكلمة للجبرتى:

> كتبوا عدة أوراق مطبوعة، وألصقوها بالأسواق: مضمونها: أن فى يوم الجمعة حادى عشرينه قصدنا أن نطير مركبًا ببركة الأزبكية فى الهواء بحيلة فرنساوية. فكثر لغط الناس فى هذا كعادتهم. فلما كان ذلك اليوم قبل العصر تجمع الناس والكثير من الإفرنج ليروا تلك العجيبة، وكنت بجملتهم. فرأيت قماشًا على هيئة الأوية على عامود قائم، وهو ملون أحمر وأبيض وأزرق على مثل دائرة الغربال، وفى وسطه مسرجة بها فتيلة مغموسة ببعض الأدهان، وتلك المسرجة مصلوبة بسلوك من حديد منها إلى الدائرة، وهى مشدودة ببكر وأحبال، وأطراف الأحبال بأيدى أناس قائمين بأسطحة البيوت القريبة منها. فلما كان بعد العصر بنحو ساعة أوقدوا تلك الفتيلة، فصعد دخانها إلى ذلك القماش وملأه، فانتفخ، وصار مثل الكرة، وطلب الدخان الصعود إلى مركزه، فلم يجد منفذًا فجذبها معه إلى العلو، فجذبوها بتلك الحبال مساعدة لها حتى ارتفعت عن الأرض، فقطعوا تلك الحبال، فصعدت إلى الجو مع الهواء ومشت هنيهة لطيفة، ثم سقطت طارتها بالفتيلة، وسقط أيضًا ذلك القماش، وتناثر منها

> أوراق كثيرة من نسخ الأوراق المبصومة، فلما حصل لها ذلك انكشف طبعهم لسقوطها، ولم يتبين صحة ما قالوه من أنها على هيئة مركب تسير فى الهواء بحكمة مصنوعة، ويجلس فيها أنفار من الناس ويسافرون فيها إلى البلاد البعيدة لكشف الأخبار وإرسال المراسلات، بل ظهر أنها مثل الطيارة التى يعملها الفراشون بالمواسم والأفراح [(١)].

ويتعين التأكيد على أن الأمر هنا يتعلق بشىء جديد كما يقول الجبرتى، فهناك "حكمة مصنوعة" مكلفة "بالسفر إلى البلاد البعيدة لكشف الأخبار وإرسال المراسلات". فلم يعد العالم كما كان من قبل، ولذا قرر الشيخ الجليل أن "يرى" وألا يكتفى "بالنظر"، وهذا هو السبب فى تردده يوم ٥ ديسمبر ١٧٩٨ على مكان عاش فيه لحظة وصفها هو نفسه بأنها "محيرة للأفكار": لقد ذهب إلى المكتبة وتستحق شهادة الجبرتى على هذه الزيارة نقلها كاملة:

> "وتركه فيه جملة كبيرة من كتبهم وعليها خزان ومباشرون يحفظونها ويحضرونها الطلبة، ومن يريد المراجعة فيراجعون فيها مرادهم فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين، يجلسون فى فسحة المكان المقابلة لمخازن الكتب على كراسى منصوبة موازية لتختاة عريضة مستطيلة، فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء منها، فيحضرها الخازن، فيتصفحون ويراجعون ويكتبون حتى أسافلهم من العساكر، وإذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول إلى أعز أماكنهم، ويتلقونه بالبشاشة والضحك، وإظهار السرور بمجيئه إليهم، وخصوصًا إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعًا للنظر فى المعارف – بذلوا له مودتهم ومحبتهم، ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير وكرات البلاد، والأقاليم والحيوانات

والطيور والنباتات، وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء بتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم، وحوادث أممهم مما يحير الأفكار، ولقد ذهبت إليهم مراراً، وأطلعوني على ذلك. فمن جملة ما رأيته كتاب كبير يشتمل على سيرة النبى صلى الله عليه وسلم، ومصورة به صورته الشريفة على قدر مبلغ علمهم واجتهادهم، وهو قائم على قدميه ناظر إلى السماء كالمرهب للخليقة وبيده اليمنى السيف وفى اليسرى الكتاب، وحوله الصحابة رضى الله عنهم بأيديهم السيوف، وفى صفحة أخرى صورة الخلفاء الراشدين، وفى الأخرى صورة المعراج والبراق، وهو صلى الله عليه وسلم راكب عليه من صخرة بيت المقدس، وصورة بيت المقدس والحرم المكى والمدنى، كذلك صورة الأئمة المجتهدين، وبقية الخلفاء والسلاطين، ومثال إسلامبول وما بها من المساجد العظام كآيا صوفية، وجامع السلطان محمد، وهيئة المولد النبوى، وجمعية أصناف الناس لذلك، كذلك، السلطان سليمان، .وهيئة صلاة الجمعة فيه، وأبى أيوب الأنصارى، وهيئة صلاة الجنازة فيه، وصور البلدان والسواحل والبحار والأهرام وبرابى الصعيد، والصور والأشكال والأقلام المرسومة بها، وما يختص بكل بلد من أجناس الحيوان والطيور عن الكتب الإسلامية مترجم بلغتهم، ورأيت عندهم كتاب الشفاء للقاضى عياض، ويعبرون عنه بقولهم: شفاء شريف، والبردة للبوصيرى، ويحفظون جملة من أبياتها وترجموها بلغتهم، ورأيت بعضهم يحفظ سوراً من القرآن، ولهم تطلع زائد للعلوم وأكثرها الرياضة ومعرفة اللغات واجتهاد كبير فى معرفة اللغة والمنطق، ويبدءون فى ذلك الليل والنهار، وعندهم كتب مفردة لأنواع اللغات وتصاريفها واشتقاقاتها بحيث يسهل عليهم نقل ما يريدون من أية لغة كانت إلى لغتهم فى أقرب وقت" (٢).

وإذا كان "المصريون والفرنسيون يفهمون بعضهم البعض ويتمكنون دون بذل مجهود كبير من إجراء حوار حقيقى" [٣] فى مجال الكتب كما قال إيف لاسوس، فهذا لا يمنع أن الجبرتى قد اكتشف طريقة جديدة تمامًا لا فى مجال حفظ "المعرفة" فحسب ولكن أيضًا فيما يتعلق باستخدامها ونقلها، وبصفة خاصة بتغذيتها دومًا عن طريق إصدارات جديدة.

وتردد بعد ذلك الجبرتى على عالم الفلك الفرنسى نوويه Nouet حيث إكتشف حياته ولاسيما استخدام أدوات للاستطلاع والقياس مختلفة تمامًا عن التى كان يعرفها، وهى كما قال "آلات غريبة متقنة الصنعة" [٤].

وتعكس شهادته عن "الرسامين" بصفة خاصة مدى "دهشته" إذ يقول:

"منهم بيت إبراهيم كتخدا السنارى، وهم المصورون لكل شىء، ومنهم أريجو المصور، وهو يصور صور الآدميين تصويراً يظن من يراه أنه بارز فى الفراغ مجسم يكاد ينطق، حتى إنه صور صورة المشايخ كل واحد على حدته فى دائرة، وكذلك غيرهم من الأعيان، وعلقوا ذلك فى بعض المجالس سارى عسكر، وآخر فى مكان آخر يصور الحيوانات والحشرات، وآخر يصور الأسماك والحيتان بأنواعها وأسمائها، ويأخذون الحيوان أو الحوت الغريب الذى لا يوجد ببلادهم فيضعون جسمه بذاته فى ماء مصنوع حافظ للجسم، فيبقى على حالته وهيئته لا يتغير ولا يبلى، ولو بقى زمنًا طويلاً" [٥].

ونحن نعرف موقف الذين يستلهمون من الإسلام إزاء الرسم والرسامين، هنا تكمن بالتحديد أهمية شهادة الجبرتى بالنسبة لعلماء الطبيعة والأطباء .. وبلا شك كان اكتشاف العلم الغربى عظيمًا بما أن المؤرخ المصرى قد كرس له جزءًا كبيرًا من شهادته:

وسكن الحكيم رويا ببيت ذى الفقار كتخدا بجوار ذلك ووضع آلاته ومساحقه وأهوانه فى ناحية، وركب له تنانير وكوافين لتقطير المياه والأدهان واستخراج الأملاح، وقدورا عظيمة وبرامات، وجعل له مكانًا أسفل وأعلى وبهما رفوف عليها القدور المملوءة بالتراكيب والمعاجين والزجاجات المتنوعة، وبها كذلك عدة من الأطباء والجرايحية.

وأفردوا مكانًا فى بيت حسن كاشف جركس لصناعة الحكمة والطب الكيماوى، وبنوا فيه تنانير مهندمة وآلات تقاطير عجيبة الوضع، وآلات تصاعيد الأرواح، وتقاطير المياه، وخلاصات المفردات وأملاح الأرمدة المستخرجة من الأعشاب والنباتات، واستخراج المياه الجلاءة والحلالة، وحول المكان الداخل قوارير وأوان من الزجاج البلورى المختلفة الأشكال والهيئات على الرفوف والسدلات، وبداخلها أنواع المستخرجات.

ومن أغرب ما رأيته فى ذلك المكان: أن بعض المتقدمين لذلك أخذ زجاجة من زجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة فصب منها شيئًا فى كأس، ثم صب عليها شيئًا من زجاجة أخرى - فعلا الماء وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف ما فى الكأس، وصار حجرًا أصفر فقلبه على البرجات حجرًا يابسًا أخذناه بأيدينا ونظرناه، ثم فعل ذلك كذلك بمياه أخرى فجمد حجرًا أزرق بأخرى فجمد حجرًا أحمر ياقوتيًا، وأخذ مرة شيئًا قليلاً جدًا من غبار أبيض ووضعه على السندان وضربه بالمطرقة بلطف - فخرج له صوت هائل كصوت القربانة انزعجنا منه - فضحكوا منا، وأخذ مرة زجاجة مستطيلة فى مقدار الشبر خيتقة الفم فغمسها فى ماء قراح موضوع فى صندوق من

الخشب مصفح الداخل بالرصاص، وأدخل معها أخرى على يد هيئتها، وأنزلهما فى الماء، وأصعدهما بحركة انحبس بها الهواء فى أحدهما، وأتى آخر بفتيلة مشتعلة وأبرز ذلك فم الزجاجة من الماء وقرب الآخر المشعلة إليها فى الحال فخرج ما فيها من الهواء المحبوس، وفرقع بصوت هائل أيضًا، وغير ذلك الأمور كثيرة وبراهين حكيمة تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة الطبائع ومثل الفلكة المستديرة التى يديرون بها الزجاجة فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدنى شىء كثيف، ويظهر له صوت طقطقة، وإذا مسك علاقتها بشخص ولو خيطًا لطيفًا متصلاً بها ولمس آخر الزجاجة الدائرة، أو ما قرب منها بيده الأخرى ارتج بدنه وارتعد جسمه، وطقطقت عظام أكتافه وسواعده فى الحال برجة سريعة، ومن لمس هذا اللامس أو شيئًا من ثيابه أو شيئًا متصلاً به حصل له ذلك، ولو كانوا ألفًا أو أكثر، ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا" (٦).

"لا يسعها عقول أمثالنا" ألا تلخص هذه العبارة الأخيرة للجبرتى كل ما أحدثته المشاهدات ونتائجها للجبرتى عند زيارته للحكيم رويا ؟

ثم تأتى بعد ذلك شهادات عن الحرفيين الفرنسيين وعن العدالة والإدارة .. إلخ. ويذكر الجبرتى فى تاريخه ثلاثين مرة، وينقل مناقشات بونابرت أو سارى عسكر مع العلماء المصريين، كما لو كان حاضرًا فى جلسات الديوان. والحق أنه لم يحضرها إلا بعد ذلك بعامين فى ظل قيادة مينو.

يقول الجبرتى: "عمل سارى عسكر ديوانًا وأحضر المشايخ والوجاقات وتكلم معهم فى أمر خروجه للسفر وأنهم قتلوا المماليك الفارين بالصعيد وأجلوا باقيهم إلى أقصى الصعيد وأنهم متوجهون إلى الفرقة الأخرى بناحية غزة فيقطعونهم ويمهدون البلاد

الشامية لأجل سلوك الطريق ومشى القوافل والتجارات براً وبحراً، لعمار القطر وصلاح الأحوال وأننا نغيب عنكم شهراً ثم نعود وعند عودنا نرتب النظام فى البلد والشرائع وغير ذلك، فعليكم ضبط البلد والرعية فى مدة غيابنا ونبهوا مشايخ الأخطاط والحارات كل كبير بضبط طائفته خوفاً من الفتن مع العسكر المقيمين بمصر، فالتزموا له بذلك وكتبوا له أوراقاً على العادة فى معنى ذلك وألصقوها بالطرق" (٧).

ويولى الجبرتى اهتماماً بقائد الفرنسيين وينقل أيضاً تصريحاته وهو يعلن عودته إلى مصر بعد محاولة غزو سوريا:

"من بونابرته سارى عسكر أمير الجيوش الفرنساوية إلى محفل ديوان مصر: نخبركم عن سفره من بر الشام إلى مصر فإنى بغاية العجلة بحضورى لطرفكم نسافر بعد ثلاثة أيام تمضى من تاريخه ونصل عندكم بعد خمسة عشر يوماً وجائب معى جملة محابيس بكثرة وبيارق ومحقت سراية الجزر وسور عكا وبالقنبر هدمت البلد، ما أبقيت فيها حجراً على حجر، وجميع سكانها انهزموا من البلد إلى طريق البحر، والجزار مجروح ودخل بجماعته داخل برج من ناحية البحر وجرحه يبلغ لخطر الموت ومن جملة ثلاثة مراكب موسوقة عساكر الذين حضروا يساعدون الجزار ثلاثة غرقت من كثرة مدافع مراكبنا وأخذنا منها أربعة موقرة مدافع والذى أخذ هذه الأربعة فرقاطة من بتوعنا والباقى تلف وتبهدل والغالب منهم عدم، وإنى بغاية الشوق إلى مشاهدتكم لأنى بشوف أنكم عملتم غاية جهدكم من كل قلبكم، لكن جملة فلاتية دائرون بالفتنة لأجل ما يحركون الشر فى وقت دخولى، كل هذا يزول مثل ما يزول الغيم عند شروق الشمس "ومنتورة" مات من تشويش، هذا الرجل صعب علينا جداً والسلام ومنتورة هذا ترجمان سارى عسكر وكان ليبيا متبحراً ويعرف باللغات التركية والعربية والرومية والطليانى والفرنساوى"(٨).

ثم يرسم لنا الجبرتى هذا الاستقبال الذى خصصه نابليون للشيوخ الذين جاءوا للترحيب به، حيث استخدم خلاله - للمرة الأولى - بضع كلمات باللغة الفرنسية:

وفى ليلة الأحد تاسعة حضر سارى عسكر الفرنساوية بونابرته ودخل إلى داره بالأزبكية وحضر صحبته عدة أناس من أسرى المسلمين، وشاع الخبر بحضوره فذهب كثير من الناس إلى الإزبكية ليتحققوا الخبر على جليته، فشاهدوا الأسرى وهم وقوف فى وسط البركة ليراهم الناس، ثم إنهم صرفوهم بعد حصة من النهار فأرسلوا بعضهم إلى جامع الطاهر خارج الحسينية وأصعدوا باقيهم إلى القلعة، وأما مصطفى باشا سارى عسكر فإنهم لم يقدموا به لمصر بل أرسلوه إلى الجيزة مكرمًا، وأبقوا عثمان خجا بالإسكندرية، ولما استقر سارى عسكر بونابرته فى منزله ذهب للسلام عليه المشايخ والأعيان وسلموا عليه ، فلما استقر بهم المجلس قال لهم على لسان الترجمان إن سارى عسكر يقول لكم إنه لما سافر إلى الشام كانت حالتكم طيبة فى غيابه، وأما فى هذه المرة فليس كذلك لأنكم كنتم تظنون أن الفرنسيس لا يرجعون بل يموتون عن آخرهم، فكنتم فرحانين ومستبشرين وكنتم تعارضون الأغا فى أحكامه، وأن المهدى والصاوى ما هم بونو أى ليسوا طيبين ونحو ذلك" (٩).

ويعطى لنا الجبرتى تفاصيل عن مغادرة بونابرت مصر وعودته المفاجئة إلى فرنسا:

"وفى ثالث عشره أشيع بأن كبير الفرنسيس سافر إلى جهة بحرى ولم يعلم أحدًا أى جهة يريد، وسئل بعض أكابرهم فأخبر أن سارى عسكر المنوفية دعاه لضيافة بمنوف حين كان متوجهًا إلى ناحية أبى قير ووعده بالعودة إليه بعد وصوله إلى مصر، وراح ذلك على الناس وظنوا صحته" (١٠).

ويختتم المؤرخ المصرى بهذه الجملة: "خرج مسافرًا من آخر الليل وخفى أمره على الناس" (١١). وعاد الجبرتى بعد ذلك ليتحدث عن هذا السفر الذى تسبب فى حيرة كل من المصريين والفرنسيين:

وفيه (الجمعة ٣٠ أغسطس ١٧٩٩) ورد من بونابرته سارى عسكر الفرنساوية كتاب من الإسكندرية خطابًا لأهل مصر وسكانها فأحضر قائمقام دوجا الرؤساء المصرية وقرأ عليهم الكتاب، مضمونه: أنه سافر يوم الجمعة حادى عشرين الشهر المذكور إلى بلاد الفرنساوية لأجل راحة أهل مصر وتسليك البحر، فيغيب نحو ثلاثة أشهر ويقدم مع عساكره، فإنه بلغة خروج عمارتهم ليصفو له ملك مصر، ويقطع دابر المفسدين وأن المولى على أهل مصر وعلى رياسة الفرنساوية جميعًا كليبر سارى عسكر دمياط فتحير الناس وتعجبوا فى كيفية سفره ونزوله البحر مع وجود مراكب الإنجليز ووقوفهم بالثغر، ورصدهم الفرنساوية من وقت قدومهم الديار المصرية صيفًا وشتاء، ولكيفية خلوصه وذهابه أنباء وحيل لم أقف على حقيقتها" (١٢).

وفى هذا السياق استرسل الجبرتى فى عقد مقارنة غريبة بين بونابرت وخليفته كليبر:

"وفيه ذهب أكابر البلد من المشايخ والأعيان لمقابلة سارى عسكر الجديد للسلام عليه فلم يجتمعوا به ذلك اليوم ووعدوا إلى الغد، فانصرفوا وحضروا فى ثانى يوم فقابلوه فلم يروا منه بشاشة ولا طلاقة وجه مثل بونابرته، فإنه كان بشوشًا ويباسط الجلساء ويضحك معهم" (١٣).

وقد نال المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى من جانب المؤرخين المصريين والفرنسيين كل التبجيل والاحترام الواجبين لعالم مصرى لم يكن يتعاطف قط مع الفرنسيين. ولكنه

الوحيد الذى قدر أثر الحدث الذى عاشته بلاده من خلال الحملة الفرنسية حق قدره .. وقد كانت شهادته - ولنؤكد على ذلك - هى الوحيدة التى نبعت من الجانب المصرى بينما أصبح بعض علماء القاهرة والأزهر من المقربين لبونابرت.

ولم يترك الشيخ المهدى - الذى حضر جلسات المعهد - ولا الشيخان البكرى والسادات - اللذان استفادا بمزايا كبيرة منحها إياهما القائد العام - أى كتابات عن هذه الأحداث. وقام الجبرتى وحده بذلك ربما لأنه لم يكن عضواً فى الديوان الأول ومما أتاح له فرصة التأمل والكتابة .. وقد قام بالتأريخ للحدث أيضًا لأنه كان دون نزاع أكثر العلماء بصيرة وكان وأستاذه حسن العطار من القليلين الذين أدركوا أن شيئًا لن يبقى على حاله. وقد نقل هذه القناعة من خلال تاريخه ثم من خلال موقفه من مينو الذى فتح الباب أمام معاصريه للبدء فى تحول ثقافى حقيقى للبلاد.

وبعد ذلك بأقل من عشرين عاماً شيدت الجيوش المصرية - المكونة أساساً وللمرة الأولى من أبناء الفلاحين - إمبراطورية تحت قيادة رئيس أركان حرب فرنسى هو سليمان باشا واسمه الحقيقى الكولونيل سيف Sève .

وصاحب التحول الثقافى للمصريين تحولاً دينيًا لبعض كبار الفرنسيين ولاسيما خليفة بونابرت الثانى الجنرال مينو.

الهوامش

(١) عبد الرحمن الجبرتى - المرجع المذكور - ص ٣٤٤ - ٣٤٥ .

(٢) نفس المرجع، ص ٣٤٨ - ٣٤٩ .

(3) Yves laissus, op. Cit., p. 201.

(٤) عبد الرحمن الجبرتى - المرجع المذكور ص ٣٤٩ .

(٥) نفس المرجع ص ٣٥٠ .

(٦) نفس المرجع ص ٣٥٠ - ٣٥١ .

(٧) عبد الرحمن الجبرتى - عجائب الآثار فى التراجم والأخبار - ج ٥ - ٦ - لجنة البيان العربى - ١٩٦٦ - ص ١٩ .

(٨) نفس المرجع ص ٦٢ - ٦٣ .

(٩) نفس المرجع ص ٨٠ .

(١٠) نفس المرجع ص ٨١ .

(١١) نفس المرجع ص ٨١ .

(١٢) نفس المرجع ص ٨٣ .

(١٣) نفس المرجع ص ٨٤ .

الفصل الثانى

بونابرت ومينو

من الانجذاب إلى الإسلام حتى اعتناقه

"باختصار يجب أن تتسم كل المعاملات بالصرامة والإنسانية والأخلاق والنزاهة .. وسأعمل من ثم على أن أعطيكم المثال .. ولأجل ذلك سأحذو حذو بونابرت".

عبد الله جاك مينو إلى الجنود الفرنسيين بمصر (٦ نوفمبر ١٨٠٠)

أخذت فكرة اعتناق الإسلام شكل الانجذاب الذى سيطر على مسيرة بونابرت وبعض جنرالاته البارزين وذلك جنباً إلى جنب مع التحول "الثقافى" للعلماء المسلمين. وأصبحت هذه الفكرة بعد ذلك ظاهرة يتسم بها معبر التحديث والسحر المتبادل بين القاهرة وباريس غداة رحيل جيش بونابرت.

وفيما يتعلق بالقائد العام – الذى أصبح حاكم القاهرة والجامع الأزهر – فقد نجح كابن بار للجمهورية ولعصر التنوير – وفقًا للمنطق المزدوج للأسلحة والمعرفة

الحديثة [1] - فى تحقيق الإنجاز الذى أخفقت فى تحقيقه الحروب الدينية التى شنها الصليبيون المتعصبون والذى يتمثل فى السيطرة على الإسلام.

وفى ذلك الوقت كان إمبراطور فرنسا المقبل لا يزال سلطان المسلمين .. ألم يكن المسلمون يطلقون عليه "السلطان الكبير"؟ والحق أن أسلوب بونابرت كان أقرب من الناحية الثقافية والسياسية من موقف الإمبراطور فريدريك الثانى دى هوهنستوفن - الذى تحدثنا عنه فى مقدمة هذا العمل - عن موقف سلفه القديم الكابوسى لويس التاسع. وقد ذكرنا بالفعل أن بونابرت قد تجنب أخطاء الصليبيين العسكرية .. ألم يعلن وهو يسخر من لويس التاسع الذى أصبح فيما بعد القديس لويس قائلاً: "أمضى القديس لويس وقته هنا فى الصلاة"؟ وشكلت هذه الديانة المسيحية المناقضة لمبادئ الثورة - بصورة غريبة - أحد الأسلحة التى استخدمها نابليون لغزو قلوب المسلمين. وكان قد صرح من قبل فى أول بيان وجهه للمصريين بأنه عدو الكنيسة وأنه يدين بالاحترام لدين النبى محمد [2].

ويحيك لنا شاتوبريان Chateaubriand بقريحته - الشديدة الأناقة المناهضة لنابليون - نسيج السياسة التى طبقها هذا القائد والتى تبدو مليئة بالتناقضات:

> **"أعلن نابليون لشيخ الأزهر أنه سيقوم بترميم المساجد وبعث باسمه إلى الجزيرة العربية والحبشة والهند. وقامت القاهرة بثورة فقصفها بالمدافع قصفًا شديدًا، وقال الملهم للمؤمنين:**
>
> **"يمكننى أن أطالب كل شخص منكم بتقرير عن أدق المشاعر التى تعتمل فى نفسه، لأننى أعلم كل شىء حتى ما لم تفصحوا عنه لأحد". وأطلق عليه شريف مكة فى أحد رسائله حامى الكعبة، كما أطلق عليه البابا فى رسالة الابن الغالى [3].**

وبالفعل كان إعجاب بونابرت بالرسول ودينه يثير عجب المصريين وزعمائهم الدينيين إذ إن تجربة نابليون الإسلامية لم تستغرق سوى ثلاثة عشر شهراً وعشرين

يومًا، وهى فترة إقامته فى مصر، والمؤكد أن هذه الفترة كانت محكومة بالقيود العسكرية ولكنها كانت أيضًا تتسم بالقرب المادى و"التشويش" الثقافى غير المسبوق فى التاريخ بين الشرق والغرب.

ففى القاهرة لمس بونابرت واقع الإسلام فى الشرق وقاس بوصفه "صاحب حلم الإمبراطورية" العظمة المادية للرسول الذى وافته المنية منذ اثنى عشر قرنًا، ولكن لا يزال نفوذه وتأثيره يمتدان ويقويان على مر العصور. وكان الرسول - هذا "المشرع" كما كان يطلق عليه فلاسفة عصر التنوير - قد ورث شعبه قانونًا حضاريًا هو القرآن.

وكيف يمكننى تفسير الصعود السريع لبونابرت بمجرد عودته إلى فرنسا، هذا الصعود الذى ارتكز على قوة سيفه وبقاء قانونه ومؤسساته؟ أليس هناك تشابه بينه وبين حياة الرسول وأعماله؟ فقد كان لبونابرت حلم شرقى مزدوج تمثل فى محاكاة الرسول والنقل عن الإسكندر الأكبر، وفى مصر حقق نابليون هذين الحلمين.

وتفترض محاكاة رسول الإسلام نوعًا من الإعجاب بشخصيته. هذا الإعجاب الذى نشأ من فلسفة القرن الثامن عشر وأثر على الشاب بونابرت حتى إنه كتب فى ١٧٨٩ أقصوصة عربية بعنوان "قناع رسول" تستحق أن ننقلها كاملة فى هذا السياق. وقد كتبها بونابرت فى عام ١٧٨٨ أو ١٧٩٨، وهو يتتبع أساسًا نص مارينى Marigny الذى كان هو نفسه ينقل عن نص هربيلو Herbelot .

> **فى عام ١٦٠ هجرية حكم مهدى بغداد، وكان هذا الأمير العظيم الكريم المستنير المتسامح يرى الإمبراطورية العربية وهى تزدهر فى سلام. وكان جيرانه يخشونه ويحترمونه وكان مهتمًا بازدهار العلوم ويسعى إلى التطور عندما ظهر "حكم" ليقوض دعائم هذه السكينة. وبدأ حكم الذى ظهر فى خورسان فى اتخاذ أتباع له من كل أركان الإمبراطورية. وكان حكم طويل القامة طليق اللسان وكان يدعى أنه رسول الله، ويدعو لقيم أخلاقية رفيعة أعجبت العامة مثل المساواة بين الطبقات، وكانت الثروات هى ما يعد به فى خطبه. والتف الناس حوله وكون جيشًا.**

واستشعر الخليفة وكبار المسئولين ضرورة القضاء على ثورة بهذه الخطورة منذ البداية، ولكن هزمت جيوشهم عدة مرات وزاد قوة حكم ونفوذه يومًا بعد يوم.

ورغمًا عن ذلك أصيب حكم بمرض عضال من أثر إجهاد الحرب أدى إلى تشويه وجهه، فلم يعد جميل العرب؛ فقد شوهت هذه القسمات النبيلة والمزهوة وتلك العيون المليئة بالسحر. وفقد حكم البصر. وكان هذا التغير خليقًا بأن يثبط حماس أتباعه ولذا قرر أن يرتدى قناعًا من الفضة.

وظهر وسط أتباعه، ولم يكن حكم قد فقد شيئًا من طلاقة لسانه، فقد كان لحديثه القوة نفسها. تحدث إليهم وأقنعهم بأنه يرتدى هذا القناع ليمنع الناس من الانبهار بالنور الذى يسطع من وجهه.

وكان يأمل أكثر من أى وقت مضى فى شغف الشعوب الجنونى الذى أثاره، عندما قضت هزيمة فى معركة على كل أعماله وليتناقص عدد أتباعه ويهن إيمانهم. وحوصر وكان عدد قواته قليلاً، وفكر: إما أن تموت وإما أن تقع فى قبضة أعدائك ! وجمع أتباعه وقال لهم: "أيها المؤمنون .. أنتم من اختارهم الله ومحمد لإصلاح الإمبراطورية والسهر على شئون الأمة، لماذا يخيفكم عدد أعدائنا؟ اسمعوا: بالأمس عندما كنتم مستغرقين فى النوم تضرعت إلى الله وناجيته: "أى رب لقد حميتنى لسنوات عديدة فهل أسأت إليك أنا أو أحد أتباعى حتى تتخلى عنا! وبعد لحظة سمعت صوتًا يقول لى : حكم، إن الذين لم يتخلوا عنك هم أصدقاؤك الحقيقيون وهم فقط المختارون .. فسوف يقاسمونك ثروات أعدائك الرائعة .. انتظر الشهر العربى الجديد واحفر

أخاديد عظيمة وسوف يقع فيها أعداؤك مثل الذباب المتأثر بالدخان".

وسريعًا ما حفرت الأخاديد وتم ملء أحدها بالحبر، ووضعت كؤوس مليئة بالنبيذ الروطانى على حافتها.

وبعد إعداد كل ذلك تم تقديم غذاء مشترك وشرب الجميع من نفس النبيذ ومات الجميع بنفس الأعراض.

وزج حكم بالجثث فى الجير فتآكلت ووضع نارًا فى المشروب الروحانى وألقى بنفسه فيه. وفى اليوم التالى أرادت جيوش الخليفة أن تتقدم ولكنها توقفت عندما وجدت الأبواب مفتوحة. ودخل البعض بحذر وكانت هناك سيدة واحدة بقيت على قيد الحياة وهى عشيقة حكم.

تلك هى نهاية حكم الذى كان يطلق عليه برقيع الذى يعتقد أتباعه أنه رفع وأصحابه إلى السماء.

هذا المثال يصعب تصديقه فهو يظهر إلى أين يمكن أن يقوده جنون العظمة ! [٤].

وإذا كان نابليون قد بدأ بكل تأكيد فى التفكير فى الإسلام إلا أنه لم يكن فى الواقع غداة عملية الخروج من النصرانية التى أحدثت الذعر سوى علمانى مقتنع بضرورة الفصل بين الدولة والكنيسة ومع ذلك كان متألهًا(*). وقد أثبت من ناحية أخرى إيمانه عن طريق عودته للكاثوليكية بمجرد أن أصبح إمبراطورًا وعن طريق الرقابة المنهجية لمناهضى الكاثوليكية.

(*) تأليهية : مذهب التأليه الذى يقر بوجود الله وينكر الوحى والآخرة (المترجمة).

وكانت شخصية محمد تلح على خاطر مؤلف "قناع رسول": وتوضح أقواله التى أملاها للجنرال برتران Bertrand فى كتابه "حملات مصر وسوريا Campagnes d'Egypte et de Syrie" مدى تأثره بالشخصية.

"كانت الجزيرة العربية وثنية عندما أدخل محمد – بعد سبعة قرون من ظهور المسيحية – عبادة إله إبراهيم وإسماعيل وموسى وعيسى. وكان الآريوسيون وطوائف أخرى أخلت بأمن الشرق قد أثاروا أسئلة عن طبيعة الأب والابن والروح القدس. وأعلن محمد أنه ليس هناك أب ولا ابن وأن الثالوث تحمل فكرة وثنية. وكتب على غلاف القرآن: "لا إله إلا الله" (٥).

ثم مضى فى إملاء برتران المخلص شارعًا فى تحليل نفسية الرسول وفى استراتيجيته النفسية السياسية:

كان محمد يتوجه إلى شعوب همجية وفقيرة يعوزها كل شىء، وغاية فى الجهل، وإذا كان قد وجه حديثه لعقولهم لما فهموا منه شيئًا .. ففى وسط رخاء اليونان، كانت المتع التى يستشعرها العقل عن طريق التأمل ضرورة، ولكن لم يكن الأمر كذلك فى وسط الصحراء حيث كان العرب يتوقون دومًا إلى بئر ماء أو ظل نخلة يمكن أن يحميهم من أشعة الشمس الاستوائية الحارقة .. وتعين وعد المختارين منهم بأنهار لبن لا تجف وجنات لها رحيق مختوم حيث يمكن لهم أن يرتاحوا فى ظل ممدود بين يدى حوريات الجنة ذوات البشرة البيضاء والعيون السوداء. وشعر البدو بالشغف إزاء مثل هذا المقام الساحر وأبدوا استعدادهم لتحمل كل شىء للوصول إليه فأصبحوا أبطالاً" (٦).

ولم يمنع نابليون نفسه من الاعتراف بإعجابه بهذا "الأمير" ونستطيع أن نستشف رغبته فى الانتماء لهذا النموذج من "العظماء" الذين صنعوا أقدارهم وأقدار شعوبهم:

"كان محمد أميرًا، وجمع حوله مواطنيه. وخلال بضع سنوات غزا المسلمون نصف العالم .. وخلال خمسة عشر عامًا قضوا على آلهة مزيفة وحطموا أوثانًا ومعابد وثنية أكثر مما فعل أتباع موسى وعيسى خلال خمسة عشر قرنًا فقد كان محمد رجلاً عظيمًا" (٧).

وعقد بعد ذلك مقارنة مثيرة بين الرسل الثلاثة مثبتًا بذلك تأملاً واقعيًا للديانات بصفة عامة وللإسلام بصفة خاصة:

"على العكس لم يعتمد البزوغ التدريجي للمسيحية على نجاح أى حدث ثانوى فقد انتشرت هذه الديانة وتسللت كمذهب يؤثر ويقنع ولا يقوى أى شيء على وقف تقدمه. وقد عجل قسطنطين بانتصار هذا الدين، ولكنه إن لم يكن قد طلب التعميد لما تأخر أحد أتباعه عن القيام بذلك. لقد كان المسيح مبشرًا ومنح الحواريين هبة الحديث. وكان موسى ومحمد زعيمين لشعوبهما وسنا القوانين ونظما شئون هذا العالم.

وقال الرسول: "السيف مفتاح السماء، من مات منكم في معركة غفر له ولا يفصل عن سيفه". لقد كان متعصبًا ومتحيزًا لآرائه، ففي كل صفحات القرآن نجد الحكم بقتل الكفار أو فرض الجزية عليهم والقضاء على قوة الوثنية لأنها إهانة لله .. والحق أن المسلمين لم يخضعوا أبدًا بصدق لسلطة أى أمير وثني.

كما كشف نابليون النقاب عن السياسة الإسلامية فى مصر حيث كان جل ما يصعب على جنود الجمهورية فى مصر هو النظر إليهم بوصفهم جنود حرب دينية وعليهم مواجهة التعنت الدينى للشعب فى القاهرة:

إن السياسات التى فحصت بأفضل صورة عبقرية شعب مصر تعتبر الدين العقبة الرئيسية إزاء إرساء السلطة الفرنسية. وفى

عام ١٧٨٨ قال فولني: "بغية الاستقرار في مصر يتعين القيام بثلاث حروب: الأولى ضد إنجلترا والثانية ضد الباب العالى أما الثالثة وهى الأصعب فهى ضد المسلمين الذين يشكلون شعب هذا البلد. وسوف تتسبب هذه الحرب في خسائر كبيرة حتى ليتعين اعتبارها عقبة لا يمكن التغلب عليها". وقد كان موقف الفرنسيين ضعيفًا رغم سيطرتهم على الإسكندرية والقاهرة وانتصارهم في شبراخيت والأهرامات .. لقد قبلهم المؤمنون الذين أذهلتهم سرعة الأحداث فخضعوا إزاء القوة، ولكنهم كانوا يبدون أسفهم الشديد لانتصار الكفار الذين كان وجودهم يدنس مياه النيل المباركة. وكانوا يئنون من الخزى الذى ظهر مرة ثانية على المفتاح الأول للكعبة المشرفة، وكان الأئمة يتلون بمنتهى الانفعال الآيات القرآنية التى تلعن الكفار.

وكان يتعين وقف تقدم هذه الأفكار الدينية التى تورط فيها الجيش رغم انتصاراته. فقد كان الجيش جد ضعيفًا ومشمئزًا حتى لا يقوى على خوض حرب دينية .. وفى القرنين الحادى عشر والثانى عشر سيطر الصليبيون على إيطاليا والقدس وأفسوس، وبطليمية ولكنهم كانوا متعصبين شأنهم شأن المسلمين. ولا تقدم حوليات التاريخ نموذجًا لمثل هذا الجهد الذى بذلته أوربا آنذاك. فقد لقى ملايين الأوروبيين حتفهم فى ساحات الحرب بسوريا، ومع ذلك وبعد بعض الانتصارات المؤقتة هزم الصليب وانتصر المسلمون. وتحققت نبوءة فولنى؛ وكان هناك خياران إما العودة إلى فرنسا أو قبول الأفكار الدينية والبراءة من لعنة الرسول للبعد عن صفوف أعداء الإسلام، كان يتعين إقناع المفتين والعلماء والأشراف والأئمة وكسبهم حتى يفسروا القرآن لصالح الجيش (٨).

وهاتان الفقرتان اللتان أملاهما بونابرت للجنرال برتران فى سانت هيلانة مليئتان بالتعاليم؛ فنجد فيهما تأثير فولنى والثقة التى كان يستشعرها المصريون فى انتصار الإسلام بفضل الأسلحة ومن ثم ضرورة قبول أفكار الإسلام. وتظهر السطور الثلاثة الأخيرة بجلاء قوة بونابرت ونسيجه الحقيقى كقائد حرب على يقين تام بحدود جيوشه.

ثم حانت - ولو بصورة خيالية - لحظة تحقيق هذا الانضمام لسلالة النبى وذلك بالوقوف - فيما يتعلق بسياسته الإسلامية فى مصر - تحت حماية محمد:

"منذ الثورة لم يمارس الجيش الفرنسى أية شعائر دينية. فلم يتردد الجيش على الكنائس فى إيطاليا ولم يتردد عليها أيضًا فى مصر. وهذه الملاحظة لم تغب عن العين البصيرة للعلماء المسلمين الذين كانوا يغارون ويقلقون على كل ما يخص عبادتهم. وكان لهذه الملاحظة أفضل الأثر عليهم .. فإن لم يكن الفرنسيون مسلمين فعلى الأقل عليهم أن يقدموا برهانًا على أنهم ليسوا وثنيين؛ وكان السلطان الكبير بصورة طبيعية فى حماية الرسول، وبهذا النوع من الغرور الذى يشترك فيه كل البشر كان الشيوخ يسعدون وهم يسردون كل أنواع التودد الذى يبذل لهم والتشريف الذى يلاقونه وكل ما قالوه أو ما كان مفترضًا أن يقولوه. وكان تحيزهم لبونابرت شيئًا بدهيًا حتى أضحى مبدأ إيماننا: "إن الفرنسيين ما كانوا ليهزموا المؤمنين قط إن لم يكن قائدهم فى حماية الرسول". إن جيش المماليك هو جيش لا يقهر، وهو أشجع جيوش الشرق، وإذا لم يبد أية مقاومة فذلك لأنه جيش كافر وظالم وهذه الثورة الكبيرة كانت مذكورة فى أجزاء كثيرة من القرآن" (٩).

وتلا هذه الفقرة أخرى تهدف إلى رد الطابع العربى للإسلام ومحمد إزاء التركمانية التى تعتبر سلالتها من المماليك والعثمانيين أعداء لمحمد وبونابرت فى آن واحد:

"وبعد ذلك لعب السلطان الكبير على وتر الوطنية العربية وتساءل: "لماذا تخضع الأمة العربية للأتراك؟ كيف تسيطر شعوب خرجت من القوقاز على مصر الخصبة والجزيرة العربية؟ وإذا نزل اليوم محمد من السماء إلى الأرض إلى أين سيتوجه؟ هل سيتوجه إلى مكة؟ لن يكون فى هذه الحالة فى مركز الإمبراطورية الإسلامية؟ هل سيتوجه إلى القسطنطينية؟ ولكنها مدينة مدنسة يعيش فيها عدد من الكفار أكبر من المؤمنين وإذا فعل ذلك سيكون قد زج بنفسه وسط أعدائه. كلا، إنه يفضل مياه النيل المقدسة، سيأتى ليسكن بالجامع الأزهر الذى يعد المفتاح الأول للكعبة الشريفة!". وعند سماع هذه الأحاديث ابتهلت وجوه هؤلاء الشيوخ المبجلين ومالت أجسادهم وقالوا وهم مربعو الأيدى "طيب، طيب، أه هذا صحيح" (١٠).

وسرعان ما وضع هؤلاء الشيوخ من علماء الأزهر القائد العام - الذى أصبح السلطان الكبير - فى مأزق إذ قاموا بدفعه للدخول فى الإسلام. وكانت هذه اللحظة حاسمة وقاطعة ولا شىء يمنعنا من الاعتقاد بأنه خلالها تحول مكر البعض بالقوة إلى شعور صدق ووجدان نشأ من بعض اللقاءات أو الاعتقاد بالصدق الحقيقى للبعض الآخر .. وقد استهدف هذا المكر وضع القائد المنتصر فى موضع اختبار.

"تريد الحصول على حماية الرسول، إنه يحبك. تريد أن يدخل المسلمون تحت رايتك وأن تعيد مجد الجزيرة العربية أنت لست بكافر .. ادخل فى الإسلام وسيأتى مائة ألف مصرى ومائة ألف عربى من الجزيرة العربية ومن المدينة ومكة ليلتفوا حولك .. وإذا ما أدرت أمورهم ونظمتهم بطريقتك فستغزو الشرق وستعيد مجد الرسول. وفى اللحظة نفسها ابتهج هؤلاء الشيوخ، وسجدوا ليطلبوا حماية السماء .. وبدوره اندهش القائد العام. وكان رأيه

الثابت أن كل إنسان يجب أن يموت على دينه. ولكنه سريعًا ما فهم أن كل ما سيشكل مادة للقاءات وحوارات فى هذا الصدد سيكون له أطيب الأثر. وأجابهم: "هناك مشكلتان تعوقان دخولى أنا وجيشى فى الإسلام: الأولى هى الختان والثانية هى الخمر .. فقد اعتاد جنودى الخمر منذ نعومة أظافرهم، ولن أتمكن قط من إقناعهم بالتخلى عنه". واقترح الشيخ المهدى بالسماح لشيوخ الجامع الأزهر البالغ عددهم ستين بطرح السؤال علانية والتداول حوله، وسريعًا ما انتشرت الشائعات فى كل الجوامع بأن كبار المشايخ يعملون ليل نهار فى تعليم مبادئ الشريعة للسلطان الكبير وكبار جنرالاته، بل وأنهم بصدد إصدار فتوى لتسهيل مثل هذا الحدث العظيم بقدر المستطاع. وشعر كل المسلمين بالزهو، وعمت السعادة فى البلاد .. وذاع بين الناس أن الفرنسيين معجبون بمحمد وأن قائدهم يحفظ القرآن عن ظهر قلب وأنه مقتنع بأن هذا الكتاب الذى يجسد الحكمة يتضمن الماضى والحاضر والمستقبل. ولكن هناك أمران يحولان دون دخوله فى الإسلام وهما الختان وتحريم الرسول شرب الخمر. وظل أئمة المساجد ومؤذنوها فى حالة تخبط لمدة أربعين يومًا .. ولكن هذا التخبط كان فى مصلحة الفرنسيين: فلم يصبحوا بالفعل كفارًا. فكل ما قاله الرسول لا يمكن أن ينطبق على منتصرين جاءوا ليضعوا انتصارهم تحت راية الإسلام .. وانتشرت الشائعات بين الشعب. وقال البعض إن محمدًا نفسه ظهر للسلطان الكبير وقال له: "إن المماليك حكموا البلاد وفق أهوائهم، وقد سلمتهم لك؛ أنت تعرف القرآن وتحبه، لقد أعطيت السلطة للشيوخ والعلماء ولذا فإن النجاح حليفك .. ولكن عليك استكمال ما بدأته. اعترف بمبادئ قانونى وعلمها؛ فقانونى هو قانون الله. والعرب

لا ينتظرون إلا هذه الإشارة، وسوف أمنحك غزو آسيا بأسرها".
وكانت الأحاديث والإجابات التى تعزى إلى السلطان الكبير تتنوع وتنتشر بألف طريقة مختلفة. واستغل السلطان الكبير ذلك ليلمح بأنه فى إجاباته طلب مهلة عام ليجهز جيشه لدخول الإسلام وهو ما وافق عليه محمد وأنه وعد ببناء مسجد كبير وأن كل الجيش سيدخل فى الإسلام وأن الشيخين الجليلين السادات والبكرى يعتبرانه بالفعل مسلمًا" (١١).

وسريعًا ما وصلت هذه الأزمة الدستورية إلى ذروتها عندما ناقش مفتو الإسلام السنيون الأربعة الموضوع باحتداد. ويورد لنا الجنرال برتران تفاصيل تلك المناقشات:

"وأخيرًا قدم المفتون الأربعة فتواهم وحرروها ووقعوا عليها. وقيل فيها إن الختان فضل ولم يشرعه الرسول ولكنه أوصى به فقط، ومن ثم فإنه من الممكن أن يكون المرء مسلمًا دون ختان، وأما فيما يتعلق بالسؤال الثانى: هل من الممكن أن يشرب مسلم الخمر؟ فى هذه الحالة يكون المسلمُ آثمًا ولا يمكن له أن يأمل فى الثواب الذى وعد الله به المؤمنين .. وأبدى نابليون رضاه بالحل الذى تم التوصل إليه بالنسبة للمسألة الأولى، وبدت سعادته صادقة وشاركه الشيوخ الكبار هذه السعادة، ولكنه أعرب عن ألمه فيما يتعلق بالجزء الثانى من الفتوى فكيف يتسنى له إقناع ناس بالدخول فى دين ويعترفون هم أنفسهم بأنهم ملعونون فيه ليختاروا بذلك موقف عصيان الأوامر الإلهية؟ واتفق الشيوخ على أن هذا الأمر صعب؟ وأعلنوا أنهم يبتهلون إلى الله فى صلواتهم – منذ أن أثيرت هذه الأمور – ليمدهم بالعون. وبعد محادثات طويلة لم يبد فيها المفتون الأربعة على نفس القدر من الحزم فى الرأى، إذ رأى البعض استحالة التوفيق ورأى البعض

الآخر – على العكس – أن هذا الأمر يمكن تعديله بعض الشيء. واقترح الشيخ المهدى الاكتفاء بالنصف الأول من الفتوى مما سيكون له أفضل الأثر فى البلاد لأنه سيرشد الشعب الذى اختلفت آراؤه حول هذا الشأن، وبالنسبة للجزء الثانى من الفتوى فيتم طرح المسألة مرة أخرى للمناقشة؛ فمن الممكن فى هذا الصدد استشارة شيوخ وأشراف مكة بالرغم مما يبدونه من اعتزازهم الشديد بعلمهم وتأثيرهم على الشرق. واتفق على هذا الرأى .. وتم إعلان الفتوى فى كل المساجد، وكان الأئمة يشرحون الفتوى عقب صلاة الجمعة (حيث كانوا يعتادون الوعظ) ويتحدثون بالإجماع لصالح الجيش الفرنسى بقوة.

أما الفتوى الثانية فقد ظلت مادة لمناقشات حادة وطويلة ولمراسلات مع مكة، وأخيرًا إزاء استحالة القضاء على كل المقاومة أو المواءمة مع نص الرسول وأمره الصريح، قدم المفتون فتوى تنص على إمكانية شرب المعتنقين الجدد للدين الخمر وأن يكونوا مسلمين على أن يكفروا عن ذنبهم بفعل الخير والأعمال الخيرية وأن القرآن يأمر بالتصدق والزكاة بعشر المال وأن المسلمين الذين يستمرون فى شرب الخمر سيكون عليهم زيادة هذه النسبة إلى الخمس. وتم قبول هذه الفتوى وبدت موافقة للآراء كلها. وعندما اطمأن الشيوخ تمامًا بدأوا فى خدمة السلطان الكبير وفهموا أنه يحتاج إلى سنة كاملة على الأقل لإقناع العقول والقضاء على المقاومة. وأمر بوضع التصميمات والخرائط والمقايسات لمسجد كبير يسع جيشه كله يوم دخوله دين محمد (١٢).

وإذا كانت الحرب التى شنـها بونابرت على الشـام والتى عـاد بعدها إلى فرنسا لم تسمح له – هو أو جنرالاته – بتعميق فكره عن الإسلام أو بالنظر إلى اعتناق جاد للديانة، فإن رغبتـه فى ذلك كانت بحق جادة . وكان من الممكن أن تـكـون أكبر إذا لم تحطم ثورة القاهرة الأولى – التى تم قمعها بالدماء – هذا الحلم لتبرز الحدود الثقافية للجانبين. وهذه الرغبة وصلت إلى نهاية "سعيدة" مع أحد جنرالات بونابرت.

فقد خطى الجنرال مينو الخطوة المصيرية بمباركة بونابرت وذلك باعتناقه الإسلام. ولكن رأى بعض مـواطنيه وجنرالاته والمؤرخين هذا العمل بوصفه عبور الجنرال لنهر الروبيكون المحرم. وأطلق على نفسه منذ ذلك الحين عبد الله جاك مينو وأصبح فى ندلر التاريخ الرسمى للحملة على مصر مادة لأكثر من هجوم افترائى وجه ضد جنرال رفعه نابليون إلى مرتبة ضابط كبير فى حرس الشرف غداة عودته من مصر قبل أن يجعل منه كونت الإمبراطورية عام ١٨٠٨ .

لقد خلف كليبر بونابرت – غداة عودته إلى فرنسا – فى قيادة الجيش فى مصر فى ٢٢ أغسطس ١٧٩٩، وسريعًا ما فهم أنه لن يكون له على المصريين نفس أثر بونابرت السحرى.

فمما لا يدع مجالاً للجدل أن شيوخ وعلماء الديوان "تأثروا كثيراً بلباقة بونابرت ووضوح رؤيته وحماسه ولطفه، ولكن لم يتوقعوا من كليبر شيئًا من هذا القبيل" (١٣). ففى الواقع كانت قامة كليبر الضخمة وقسوته البادية فى قسمات وجهه قد ألقت الفزع منه فى نفوس الشيوخ. والحق أن المصريين الذين كانوا يطلقون على بونابرت السلطان الكبير سريعًا ما أطلقوا على كليبر السلطان الطويل (١٤).

ويشير الجبرتى إلى الاختلاف بين الرجلين قائلاً:

"وفيه ذهب أكابر البلد من المشايخ والأعيان لمقابلة سارى عسكر الجديد للسلام عليه فلم يجتمعوا به ذلك اليوم ووعدوا إلى الغد، فانصرفوا وحضروا فى ثانى يوم فقابلوه فلم يروا منه بشاشة

ولا طلاقة وجه مثل بونابارته، فإنه كان بشوشًا ويباسط الجلساء ويضحك معهم" (١٥).

وبالفعل أعاد هذا الجنرال الألزاسي حلم بونابرت إلى أهدافه الأولى ذات الطابع العسكرى البحت. وأطفأ ثورة القاهرة الثانية فى بحر من الدماء واستغل الفرصة ليغلق للمرة الأولى فى التاريخ أبواب الجامع الأزهر وليجهز - بعد وصوله للقيادة - رحيلاً مشرفًا لجيشه .. ووقع فى العريش فى ٢٣ يناير ١٨٠٠ مع العثمانيين والإنجليز معاهدة جلاء. وخلال قمع ثورة القاهرة الثانية فى مارس ١٨٠٠ ارتكب كليبر خطأ جسيمًا بإهانة العلماء علانية وهم الذين طالما بجلهم بونابرت. وكان القبض على الشيخ السادات عضو الديوان وسليل الحسين هو الذى أذهل الجميع .. فقد نقل الشيخ السادات إلى القلعة وحبس فى مخزن حيث ضرب ضربًا شديدًا ليل نهار. وقام كليبر - الذى كان يتهمه بأنه أحد محركى الثورة - بالقبض على زوجته لتشاهد تعذيبه .. وجاء رد الفعل على الفور فاغتال طالب سورى يدعى سليمان الحلبى كليبر بعدة طعنات فى حديقة مركز القيادة العامة فى ١٤ يونيه عام ١٨٠٠ . وتوفى كليبر سريعًا متأثرًا بجراحه.

وهكذا تولى مينو بحكم أقدميته القيادة العامة للجيش الفرنسى فى مصر وهذا الرجل الذى سمى نفسه منذ ذلك الحين عبد الله جاك انتهج سياسة معاكسة تمامًا لسياسة كليبر؛ فقد أراد بالفعل هذا الحاكم الرشيد استكمال سياسة بونابرت الشرقية. وسرعان ما قامت مجموعة من الجنرالات بالثورة ضده.

وتوجه خمسة من هؤلاء الجنرالات - من بينهم بيليار Belliard ورينييه Reynier فى الثامن والعشرين من أكتوبر عام ١٨٠٠ إلى مكتبه للاعتراض على سياسته. وكان مينو قد رفض من قبل أن يكون مندوب كليبر (١٦) فى مفاوضات الجلاء مع الأتراك والإنجليز. وشاب اللقاء جو من التوتر والقذف. ولم ينج مينو من هذا الإعجاب الأعمى الذى كان يحمله الجنرالات لكليبر إلا عن طريق مرسوم أصدره القنصل الأول فى ٤ نوفمبر ١٨٠٠ بإبقائه فى منصبه.

وخلال ثمانية أشهر ونصف أعطى مينو لإدارته قوة جديدة ولسياسته تجاه المصريين بعداً تجاوز حتى فى مجال التسامح بعد بونابرت. ولاقتناعه العميق بأهمية سياسة مصر لمصالح فرنسا، شرع مينو فى إقرار السلم فى البلاد لا باستخدام السلاح ولكن بتشكيل لجنة خاصة يناط بها التداول حول كل المسائل التى تتعلق باستقرار ورخاء البلاد باستثناء ما يتعلق بالحرب والسياسة الخارجية.

وأصدر مينو الأوامر لفورييه باستئناف أعمال الديوان وتوسيع مجلس إدارته، وهكذا انضم إليه الجبرتى.

وأصدر القائد بعد ذلك أوامر بإنجاز أعمال فى مجال الرى، وشجع الصناعات المصرية الصغيرة وبدأ فى أعمال التنقيب حول الأهرامات دون إغفال استئناف أعمال المعهد الذى نظم فى ظل قيادة مينو تسع عشرة جلسة خلال بضعة أسابيع من العمل. وأعطى أوامر خاصة بفتح المكتبة للمصريين وتسهيل ترددهم عليها.

ولم يكتف مينو بذلك بل امتدت إصلاحاته ليلغى الاستثناءات الضريبية الممنوحة للجنرالات والأقباط والأوروبيين بهدف إرساء قانون عام، كما أصلح نظام الرسوم الجمركية .. وخلال بضعة شهور أعاد استقرار موازنة البلاد بفاعلية. وتم دفع رواتب الجنود ومتأخراتهم، وهكذا تتبين لنا الأسباب التى دفعت نابليون لتعيينه عند عودته إلى فرنسا مديراً عسكرياً فى بيمون Piémont ثم فى توسكانيا Toscane رغماً عن الحملة التى شنها ضده رينييه.

ودون أية إمدادات عسكرية بدأ مينو فى مصر أعمال تحصينات ودفاعات. وعند نقله لقوات مساعدة إلى البلاد لجأ إلى قوات البحرية التى طالما نسيها بونابرت وكليبر، وأعاد تنظيم الترسانة البحرية فى الإسكندرية وعين لها مديراً إدارياً فى شخص لورو Leroy .

وهذه الأعمال الضخمة التى تمت فى بضعة شهور لم تستكمل للأسف لأن أتباع الجنرال بذلوا كل ما فى وسعهم لإجهاض جهوده، وشنوا بصفة خاصة حملة ثورية

ضد الذى أطلقوا عليه "عبد الله المرتد". ولم يسامحوا مينو خاصة لتسمية ابنه المصرى سليمان وهو اسم قاتل كليبر.

وهكذا عندما رأى مينو الأسطول الإنجليزى وهو يرسو أمام الإسكندرية فى الأول من مارس ١٨٠١ وعليه ١٥ ألف شخص، جهز جيشه لمقاومة شرسة. وبسبب عدم مساندة جنرالاته وانهيار معنويات جيوشه هزم فى كانوب فى ٢١ مارس. وكانت النهاية غير المتوقعة: فبينما كان يتجه مينو إلى الإسكندرية مع جيشه تدفعه إرادة قوية لحماية المدينة الأولى التى استولى عليها بونابرت عند وصوله، وجد بيليار - الذى طالما ندد كليبر بأسلوبه كقنصل سابق فى التصرف والإدارة - يوقع بالقاهرة فى ٢٨ يونيه اتفاق جلاء مشين أفقد فرنسا جوهرة اكتشافاتها العلمية وهى حجر رشيد.

واستشاط مينو غيظًا وقبض على بعض جنرالاته ورحلهم إلى فرنسا وصنع المستحيل لاسترداد حجر رشيد من الإنجليز. وقد ترك لنا التاريخ فى الخطابات المتبادلة بينه وبين الأميرال هيوتشينون - بنبرة تقترب أحيانًا من القذف - أدلة استبسال هذا الرجل لتحقيق مصالح بلاده.

ومع ذلك فقد انهزم هذا الجنرال المسلم فى جيش بونابرت بالقاهرة بسبب عصيان جنرالاته وانهيار معنويات جنوده واستسلام بليار فى القاهرة ثم كانت الطامة الكبرى عندما أصيب هو نفسه بوباء الطاعون مما دفعه للاستسلام فى ٣١ أغسطس ١٨٠١ .

وخلال كل هذه الأحداث احتفظ المصريون بالهدوء بصورة تدعو للعجب. فلم تتفجر أى ثورة أو تمرد ! والسؤال الذى يثور هو كيف يتسنى لنا فهم موقف المصريين الذين جرأوا على الثورة ضد الجنرال الحديدى كليبر وحتى ضد بونابرت ؟ لقد رأى المصريون بجلاء أن الجيش الفرنسى كان فى حالة يرثى لها من الفوضى واليأس وأنه حسبهم القيام ببعض الحركات حتى ينالوا حريتهم .. ولكن ممن؟ من مينو؟ لقد وجد المصريون فى مينو قائدًا حكيمًا ومتسامحًا، حتى وإن لم يقتنعوا باعتناقه الإسلام. وكان هناك أمر لا يمكن إنكاره وهو أن هذا الرجل كان يكن لبلدهم ودينهم ورسولهم

احترامًا كبيرًا وكان يتصرف بحرص غير مسبوق فى تاريخهم لتحقيق العدالة. وكان ذلك هو سبب هدوئهم كما لو كانوا قد فهموا أنهم أضحوا الدعم الوحيد لهذا الجنرال الفرنسى الملىء بالإنسانية .. ولقياس مدى التغير الثقافى من الجانبين الفرنسى والمصرى نذكر فى هذا الصدد الرسالة التى وجهها مينو لجيشه فى ٥ سبتمبر ١٨٠٠ كما أوردها جوزيف مارى مواريه Joseph-Marie Moiret، قائد الفصيلة المقاتلة ٧٥:

أيها الجنود !

لقد وعدتكم بأن أكون دومًا صادقًا معكم، وقد جئت هنا لأفى بوعدى، إننى غير راض عن كثير منكم، فهناك شكاوى خطيرة تقدم وهناك جرائم ترتكب وهناك جنود تسمح لنفسها بأن تعامل السكان بطريقة غير كريمة. ولكن كيف؟ كيف تكونون جمهوريين دون أن تكونوا كرامًا؟ كيف تكونون فرنسيين وتحاكون البرابرة؟ أواه ! لكم أتمنى أن يكون الإفراط الذى صدر عن بعضكم ما هو إلا نتيجة للسكر. ولكن لم السكر وأنتم تعلمون عواقبه؟ فالسكران ما هو إلا مجنون قادر على الإسراف فى كل الأمور، قادر على ارتكاب أبشع الجرائم. ماذا بكم ! أتريدون أن تتشبهوا بهؤلاء البرابرة الذين قضيتم عليهم فى هليوبولس والمطرية !

أيها الجنود! إن رجل العصور القديمة الإسكندر الأكبر الذى غزا مصر أيضًا خسر - فى رأى المنكرين - الجزء الأكبر من سمعته بالأفعال المسرفة التى ارتكبها فى جنون سكره، وهذا الفاتح الشهير كان سيعد وباء على الجنس البشرى لولا تكفيره عن جزء من الجرائم التى ارتكبها بأعمال عظيمة تتسم بالفضيلة.

أيها الجنود! احرصوا على أن تكونوا كراما مع المصريين، ولكن ماذا أقول؟ لقد أصبح المصريون اليوم فرنسيين، إنهم إخوانكم.. احرصوا على احترام الشيوخ، احرصوا على احترام

النساء، احرصوا على تحقيق العدل .. ما هو المجد الذى تحققونه عندما تسيئون معاملة رجل يرتعد خوفًا من مظهركم وحده ؟! عاملوه بالصورة التى كنتم تتمنون أن يعاملوكم بها لو انقلبت الأوضاع. أيها الجنرالات وقواد اللواءات والضباط من كل الرتب كرروا دومًا هذا الكلام للجنود الذين يعملون تحت قيادتكم؛ قولوا لهم: إنهم عندما يجبروننى على استخدام أساليب الشدة فإننى أشعر بالأسى أكثر ممن أعاقبهم، قولوا لهم: إننى عندما أمضى ساعات الليل والنهار ساعيًا لأن أوفر لهم الرخاء فهم يدينون لى ويدينون أكثر لشرفهم بالتصرف كجمهوريين كرام عن حق.

وقد وصلت لى شكاوى حول بعض التجاوزات التى حدثت فى الحمامات العامة. فقد أراد بعض الرجال اصطحاب نساء للاستحمام معهن. وفى كل الدول المتحضرة، تدين القوانين هذا الجرم، فهو مناف للآداب العامة ولا يمكن ارتكابه فى المجتمع. وبالتالى فإننى أصدر الأوامر لكل الجنرالات والقيادات والقواد العسكريين بقمع ومجازاة كل المخالفات المشار إليها فيما سبق (١٧).

هل سيراجع التاريخ فى يوم ما الحكم الذى أصدره على الجنرال الفرنسى دون أن يأخذ فى الاعتبار اعتناقه الدين الإسلامى ؟

الهوامش

(١) "لا ينفصل الجانبان العسكرى والعلمى عن بعضهما البعض. فالاكتشافات العلمية ما كان لها أن تتم دون غزو عسكرى، ولما تبقى شىء من الغزو إن لم يستفد من الاكتشافات بوصفها امتداداً وذريعة له".

Robert Solé, Les Savants de Bonaparte, Paris, le seuil, coll. "Points", 1998, p. 193.

(2) Chateaubriand, Napoléon (d'après les Mémoires d'outre - tombe), édition de 1849, Mari - Livres, 2001, p. 20.

"شعوب مصر، إننى أحترم الله ورسوله والقرآن أكثر من المماليك. إن الفرنسيين أصدقاء للمصريين وفى الماضى اتجهوا إلى روما وقلبوا عرش البابا الذى كان يثير المسيحيين ضد من يدعو للإسلام، ثم توجهوا نحو مالطا وطردوا الكفار الذين ظنوا أنهم سمعوا نداء الرب ليحاربوا المسلمين .. وإذا كانت مصر مزرعة المماليك فليظهروا العقد الذى به منحها الله إياهم.

(3) Ibid., p. 20 - 21.

(4) Napoléon, manuscrits inédits, Pais, 1910, Vol. II, p. 17 - 19.

وهذا المخطوط وغيره من المخطوطات التى خطها بونابرت موجودة بالمكتبة اللورنتية فى فلورنسا.

(5) Henry Laurens, Campagne d'Egypte et de Syrie par le général Bertrand, presentation, Paris, Imprimerie nationale 1998, p. 140.

(6) Idem.

(7) Ibid., p. 141.

(8) Ibid., p. 142.

(9) Ibid., p. 144.

(10) Idem.

(11) Ibid., p. 145 - 146.

(12) Ibid., p. 146 - 147.

(13) André Raymond, op. Cit., p. 173.

(14) Voir la note de Joseph Cuoq, dans sa traduction de Gabarti, op. Cit., p. 394.

(15) Ibid., p. 181.

(١٦) معترضاً على سياسة كليبر، رفض مينو عرض هذا الأخير بتولى القيادة فى القاهرة بعد انتصار العريش.

(17) Joseph - Marie Moiret, Mémoires sur l'expédition d'Egypte, Paris, Belfond, 1984, p. 167 - 168.

خاتمة

إذا ما أعدنا قراءة هذه الجملة الجميلة لبروديل: "الماضى القريب يقترب منا سريعًا والماضى البعيد يصحبنا ببطء"، لأمكننا القول بأن نابليون بونابرت قد شكل الماضى الأول ومحمد الماضى الثانى لمصر، وتقابل الاثنان فى هذا البلد.

ولم تتسم أية مقابلة بمثل هذا الطابع القاطع خلال التاريخ، ونجم عنها هزات سياسية وتحولات ثقافية غير مسبوقة سواء بالنسبة لشعب محمد أو لعالم الإمبراطور. وأحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ المأسوية التى تعد الموجة الأخيرة لهذا الصدام تضرب بجذورها فى هذا اللقاء البعيد بين الجنرال والرسول.

لقد حفل تاريخ الإسلام والغرب بسلسلة طويلة من الغزوات الفاصلة مثل سقوط الإسكندرية عاصمة مصر القديمة – وقلب العالم الهلينستى (*) الذى نشأ عن الارتباط بين الشرق والحضارة اليونانية – التى وقعت بين يدى العرب عام ٦٤٢، ثم القدس التى غزاها الصليبيون الأوائل عام ٩٩٨ وهو الحدث الذى تسبب فى ظهور مصر الإسلامية على الساحة؛ مصر صلاح الدين وبيبرس وقلاوون .. هؤلاء السلاطين العظام رموز إسلام منتصر وحاكم .. وهناك أمر هام يتعين التشديد عليه فى هذا الصدد وهو أن الأمر كان يتعلق بحروب دينية لم تؤثر قط فعليًا على التجارة الدولية ولم تسبب بالتالى أية صراعات ثقافية. فقد وقعت الأحداث كلها وفقًا للرسم التخطيطى التقليدى لمواجهات تسترشد بقواعد العالم القديم السياسية والعسكرية.

(*) هو العالم الذى انتشرت فيه حضارة الإغريق أو ثقافتهم بعد الإسكندر الكبير (المترجمة).

ولا يتعين إغفال أن الجيوش التى ألقت بآخر صليبيى دولة عكا اللاتينية فى البحر عام ١٢٩١ انطلقت من القاهرة مقر الأزهر الشريف. وقد أدت نهاية الحلم الدينى للغرب المسيحى فى الشرق بطريقة لا يمكن تفاديها إلى سقوط غرناطة.

ومنذ ذلك الوقت كان لكل جانب "أندلسه المفقود".

والحق أن سيطرة الأتراك المسلمين على القسطنطينية عام ١٤٥٣ ثم حصارهم لفيينا عام ١٦٨٣ هما الحدثان اللذان أديا إلى نشأة "المشروع الكبير" فى الممالك الأوروبية، وهو مشروع يهدف إلى سقوط الإمبراطورية العثمانية بالاستيلاء على القاهرة.

ويعد مخطوط غزو مصر لليبنتز خير دليل على ذلك، بيد أن فيلسوف الآحاداتية كان حتى ١٦٧٢ حبيسًا للتصور التقليدى والدينى للصراع اللانهائى بين المسيحية والإسلام. ومع ذلك فقد سمح بتوضيح مسألة الإسلام المصرى لفلاسفة عصر التنوير. فحتى ذلك الحين قام الاستشراق الغربى على أفكار مسبقة عن الرسول وعلى ألف حجاب مستلهم من ألف ليلة وليلة فى حالة من الانفصال التام عن واقع الإسلام فى الشرق.

وإذ أدرك أبناء الثورة الفرنسية البعد الثقافى لهذا الصراع فهموا أن العالم قد تغير وأن مدفعية نابليون الجهنمية يمكن أن تكون فعالة إزاء أمراء أوربا. أما فى مصر فكان هناك حاجة لجيش ثانٍ؛ هو جيش المعرفة. وأثبت علماء بونابرت لعلماء الدين المصريين أنهم متأخرون جدًا فى مجال المعرفة ، ومن ثم فى مجال القوة المادية .. ولم يتم تفسير هذا التفوق الغربى على الإسلام بوصفه انتصارًا للمسيحية على دين الرسول، والدليل على ذلك هو مختلف تصرفات بونابرت ومحاولاته التقرب من النبى وعلماء الدين.

وإذا كان لمصر إسلامها الذى يكسبها دورًا سياسيًا وثقافيًا داخل المجتمع الإسلامى، فقد نسجت فرنسا مع هذا الإسلام المصرى علاقة غريبة: فكان من نتائج

حملة لويس التاسع الصليبية على مصر وصول المماليك إلى السلطة وأنهت حملة نابليون العلمانية البحتة دولتهم، كما لو كان بونابرت قد أراد أن يثأر من السلاطين المماليك - بيبرس وقلاوون والناصر - الذين أنهوا بالدماء فصل الحروب الصليبية فى تاريخ الشرق.

ولم يكن الأمر كذلك، فقد آمن القائد العام بحرفية ما أعلنه فولنى عن قوة شعور المصريين الدينى، وتقدم لهم بوصفه صديقًا للرسول وحاميًا للمؤمنين ودينهم ضد استبداد المماليك والعثمانيين.

وتوالت مشاريع نابليون الإسلامية فى مصر. ومما لا شك فيه أن أول نجاح لفكرة التحرر من نير العثمانيين بفضل تشكيل الديوان يعد أول خطوة "لتمصير" مصر فى العصور الحديثة. فلم تكن مصر تركية ولا إسلامية تمامًا، ولكنها تسترشد بإسلام تمتزج فيه المثل العليا للثورة والقومية.

وكانت أعمال محمد على لتحديث مصر بعد رحيل الحملة الفرنسية مستلهمة من هذا "التمصير" وما يمكن أن نطلق عليه هذه "الفرنسة" للإسلام. فقد كانت محركًا لكل الحروب التى شنها محمد على ضد الباب العالى من أجل أبناء إمبراطوريته المصرية، وهو الذى وصل إلى الحكم بفضل علماء الديوان وهم شيوخ الأزهر أنفسهم الذين حولوا مصر ثقافيًا من الجبرتى وحتى حسن العطار. فقد أوصى هذا الأخير محمد على بإلحاق شاب أزهرى - رفاعة الطهطاوى - ببعثة الطلاب المصريين الأولى إلى باريس بوصفه مرشدًا دينيًا. فكان فى باريس ثم فى القاهرة الباعث الحقيقى لمصر حديثة على الطراز الفرنسى ولإسلام متطور. وقد خلف تلميذ جومار Jomard وصديقه شيوخ آخرون أحدثوا انقلابًا ثقافيًا وسياسيًا فى بلادهم ودينهم نذكر منهم الشيخ محمد عبده شيخ الأزهر وصديق رينان Renan وأوجست كونت Auguste Conte، وكذلك طه حسين صديق ايتيمبل Etiemble وأندريه جيد وكوكتو.

وفى الواقع كان طه حسين من الأنصار المتحمسين للطابع "الفرعونى" للنهضة المصرية. وبنفس الطريقة التى ظلت بها أعمال بونابرت فى مصر محصورة فى دائرة

العلماء، ظلت الجماهير المصرية مناهضة تماماً للجنرال وعلمائه. ولذا ظل تحديث مصر والإسلام ميزة محصورة فى طبقة اجتماعية بعينها؛ وهى طبقة العلماء المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالثقافة الفرنسية. وقد أدى الاستعمار البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ إلى دعم هذه العلاقة مع فرنسا.

وظل التيار الحديث الذى اضطلع به الأزهر وتياره القومى حبيسين داخل ميراث بونابرت. ونفذت هذه الحركة نفسها ذاتياً ولكنها لم تدخل فى تحدٍ فى مواجهة المعهد. ولم تنفذ بالفعل "وصف الغرب" الخاص بها ولم تنشئ "المعهد" الخاص بها. وقد تمت كل الإنجازات فى صورة شبه محاكاة للقرارات الفرنسية، أما التحديث التام على النسق الغربى فقد منعه الإرث العثمانى الذى يغذيه إسلام تقليدى مناهض للغرب تقريباً. ومن هذه الطبقة المصرية المناهضة لبونابرت بالأمس والمناهضة لأمريكا اليوم ظهرت رموز قيادات الأصولية الإسلامية التى قلبت العالم فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ .

وإزاء غارة بونابرت العلمية لم يكن أمام المسلمين سوى سبيلين لصدها: شبه المحاكاة أو الثورة التامة. وقد توالى هذان الخياران وتضافرا فى دمشق والقاهرة والجزائر العاصمة. ولكن دخل المسلمون والغربيون عصر جنون الحضارات من اتجاه قناة السويس !

كان شق قناة السويس أو كما كان يطلق عليها آنذاك "قناة البحرين" فى ١٨٥٩ أعظم مشروعات مصر الجديدة منذ عهد محمد على، ويعد دلالة انفتاح على العالم بصفة عامة وفرنسا بصفة خاصة.

وكانت حملة بونابرت هى التى أحيت الحلم الأوروبى القديم الخاص بربط البحرين بغية تسهيل تجارة الغرب مع الشرق وآسيا. وكان المصريون أنفسهم قد نسوا على مر العصور قناتهم القديمة؛ قناة الفرعون سيزوستريس والخليفة عمر التى تربط النيل بالبحر الأحمر.

وبتفتيش بونابرت بنفسه منطقة السويس حقق أحد أهداف الحملة المعلنة صراحة فى أمر حكومة المديرين .. ومن المؤكد أنه طرأت له فكرة بالنسبة لرواد المشروع من

ليبنتز إلى فولنى. فلو حفر نابليون القناة لكان قد حقق حلم القدماء ولاسيما الإسكندر والذى يتمثل فى الربط بين الشرق والغرب قبل فتح طريق آسيا لقواته والسيطرة على ثروات مصر والعالم. وقد أصبح هذا المشروع بصورة شرعية تقريبًا فرنسيًا. وقد أوحى بفكرته بداية السان سيمونيون بفضل نصيبهم الكبير من الأحلام الشرقية الغريبة إلى جانب دراسات جدوى جادة، ثم الصدفة التى سمحت باللقاء التاريخى - فى خيمة بالصحراء المصرية - بين والى مصر الجديد محمد باشا سعيد ابن محمد على والدبلوماسى الفرنسى فردينان ديليسبس.

وهكذا منح سعيد باشا فى ١٥ نوفمبر ١٨٥٤ لفردينان ديليسبس حق امتياز قناة السويس على حساب إنجلترا والباب العالى - اللذين كانا يندان بنابليون خارج الشرق - وسمحت مصر لفرنسا أخيرًا بتحقيق حلمها القديم.

ولم يقتصر التحدى على الجانب السياسى، فقد كانت هناك حاجة لوسائل تقنية ومالية وإدارية كبيرة. ومالبث أن أصبح هذا المشروع فخر مصر وفرنسا المشترك فى مواجهة باقى العالم. واستطاع البلدان الاستثمار ماليًا فى هذا المشروع بفضل اكتتابات شعبية متواضعة وكذلك ثقافيًا إذ إن فرنسا التى تعد الابنة البكر للكنيسة الكاثوليكية ومصر التى تعد حامية الإسلام ومقر الأزهر الشريف نجحتا فى جمع العالم القديم فى سلام ولصالح رخاء الجميع بتقصير المسافة بين أوربا وآسيا.

وخلال الاحتفالات الباذخة لافتتاح قناة السويس فى نوفمبر ١٨٦٩ أعرب البلدان عن أملهما فى حضور شيخ الأزهر ممثلاً الإسلام وممثل البابا قداسة بوييه **Boyer** ممثلاً المسيحية.

وشاب هذه الصورة الرائعة ظل معيب: ففى مدينة الإسماعيلية تلك المدينة الفرنسية التى صممت وشيدت على ضفة قناة السويس على شرف الخديوى إسماعيل. حيث تم الاحتفال بافتتاح القناة بحضور الإمبراطورة أوجينى - لفت الشعب المصرى الأنظار بغيابه. هذا الشعب الذى أعطى زهرة شبابه أيدى عاملة وتركها لتحفرها بأيديها العارية فى ظروف جد قاسية لم يدع للحضور .. وقد خشى المصريون - وهم

يرون كل هذا العالم الجميل يمر بالإسماعيلية - من أن يدفعوا غاليًا ثمن هذه الفاتورة السياسية التى نشأت من الجرأة الفرنسية المصرية. وبالفعل لم تتأخر إنجلترا فى إرسال جيوشها فى يوليو ١٨٨٢ إلى مصر للاستيلاء على القناة. وكانت القناة من بين أسباب فقد البلاد لاستقلالها. وأصبحت القناة منذ ذلك الحين أداة إحباط قومى مصرى إذ أسهمت - بالفعل - فى رخاء العالم بأسره باستثناء الرجال الذين حفروها وفضلاً عن ذلك أصبحت سببًا فى فقدهم لاستقلالهم. وكانت الطبقات الشعبية التى لم تدع فى الإسماعيلية هى التى قامت بالثورة ضد بونابرت وكليبر وهى التى أهملها نظام تحديثى لا يهتم إلا بطبقات المجتمع العليا.

ونشأت القومية المصرية فى هذه البوتقة، وتمثلت فى حركة نشأت من الطبقة الوسطى (البرجوازية الصغيرة) بالقاهرة وسكان الريف غذتها جذور ثقافية إسلامية. فقد قام جمال عبد الناصر - الذى كان من أبناء الشعب - بقلب نظام الملكية المصرية فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بمساعدة الأمريكان، وأسس الجمهورية المصرية الثانية (وكانت الأولى قد أسسها بونابرت بمساعدة خليفتيه كليبر ومينو). وانطلاقًا من حماسه القومى لم يكترث ناصر بالمحتلين الإنجليز الذين طردهم من البلاد ولا بالثقافة الفرنسية التى بنى فى مواجهتها جدارا عازلاً.

وقبيل الثورة المصرية أسس مصرى - حسن البنا - جماعة الأخوان المسلمين فى مدينة الإسماعيلية وهى مدينة فرنسية بامتياز على الأراضى المصرية. وأصبح البنا ملهما لحركة أصولية قلبت مصر والعالم الإسلامى فى القرن العشرين قبل أن تقود - ربما بصورة لا إرادية - إلى نشأة جماعات متعصبة مسلحة مستعدة لبذل كل شىء فى سبيل محاربة الغرب الكافر.

ونشبت الثورة المصرية الثالثة ضد بونابرت على ضفاف قناة السويس - رمز الملحمة الفرنسية الكبيرة فى مصر - والإسماعيلية - الابنة الفرنسية بامتياز - ! ولم يتأخر رد فرنسا والغرب - ولم تنضم الولايات المتحدة - فى الوصول إلى المصريين الذين ثأروا من التاريخ بتأميمهم الأسطورى للقناة فى يوليو ١٩٥٦ مما أدى إلى قيام حرب السويس.

وفى المكان الذى أخفق فيه بونابرت عسكرياً، أخفقت أيضاً فرنسا بقيادة جى موليه Gug Mollet وحلفاؤها من لندن وتل أبيب. وهذه القناة التى ظلت طويلاً رمزاً لعظمة فرنسا وتفوق الغرب تحولت إلى مقبرة للإمبراطوريتين الفرنسية والبريطانية مجتمعتين وهما اللتان قد تقاتلتا فى الماضى ضد بعضهما البعض.

وخلال هذا الوقت نسج الإخوان المسلمون فى العالم بأسره - ولاسيما فى ضواحى المدن الفرنسية والغربية الكبرى - شبكة واسعة تقوم على الشباب المتطرف.

وجدت الولايات المتحدة - التى رفضت التدخل العسكرى الفرنسى الإنجليزى فى السويس - فى ناصر وإمارات الخليج الإسلامية حليفاً قوياً للسيطرة على الشرق الأوسط الذى يطفو على محيط من البترول. واقتفاء لأثر نابليون انتهجت الولايات المتحدة سياسة تواطؤ مع الإسلام.

وفى هذه المرة خلال عصر الإنترنت كانت ثورة المسلمين عظيمة .. فقد أيقظ بونابرت الإسلام المصرى وأيقظت الولايات المتحدة الإسلام الدولى المسلح والممول على أعلى المستويات .. إن المسافة لشاسعة تلك التى تفصل بين الإسماعيلية والمسالم حسن البنا وبين كابول وأسامة بن لادن ! وحطم مسلمون - أبناء التغريب المفرط - البرجين اللذين يرمزان للسلطة الغربية الجديدة. لقد أساءت الولايات المتحدة محاكاة بونابرت.. فإذا كان الجنرال قد لعب مع علماء الدين المعتدلين فقد لعب خلفاؤه الغربيون فيما وراء المحيط الأطلنطى مع التطرف. أليس بن لادن مخلوقاً أمريكياً ؟

وأمام برجين محطمين فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ غمز تمثال الحرية - الذى تم بناؤه فى الأصل ليوضع فى مدخل قناة السويس - بعينه للتاريخ. إن الطريق بين السويس ونيويورك ليس بالطويل ولكنه محفوف بالصدامات بين الإسلام والغرب الأوروبى.

ومع الغرب الأمريكى بدأ عصر الصدامات الكبرى لتوه. والصدام الثقافى الذى أراده بونابرت لا يزال يلقى علينا - فى الشرق والغرب على حد سواء - بموجاته الرهيبة.

العزة لله

لا إله إلا الله

محمد رسول الله

وأنا من أصدقائه

بتلك الكلمات التى وجهها نابليون - الابن البار لعصر التنوير - لفقهاء الإسلام أعطى لحملته على مصر بعدًا دينيًا غربيًا. وقد كان للنبى محمد (صلى الله عليه وسلم) - بالرغم من غيابه - دور بارز وأثر كبير على الشعب المصرى ومقاومته للحملة. وقد بهر النبى ﷺ - بوصفه مشرعًا ومؤسسًا لإمبراطورية - نابليون بونابرت الذى حاول أن يقتفى خطاه.

وبالرغم من ذلك تميز هذا اللقاء العقلانى الأول بين الشرق والغرب بالهوة الواسعة التى تفصل بين شعور مزدوج: الولع والرفض، وكانت تلك الهوة الخطيرة هى التى باعدت بين الغرب والإسلام وخير دليل على ذلك أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ والحروب التى أعقبتها.

ويحاول أحمد يوسف من خلال دراسة متأنية للنصوص ولاسيما المصرية منها أن يثبت أن القاهر لابد وأن يقهر من جانب المقهور.

المؤلف فى سطور :

ولد الكاتب أحمد يوسف بمدينة الإسكندرية وأتم دراسته الثانوية بها ثم انتقل إلى القاهرة ودرس بكلية الألسن ، وعمل بها معيداً ثم مدرساً مساعداً وحصل عام ١٩٩٢ على الدكتوراه من جامعة السربون عن "مصر فى الخيال الجمعى الفرنسى"، ويعمل منذ عام ١٩٩٥ بصحيفة الأهرام العريقة بمكتب باريس . وله مجموعة من المؤلفات ، من أهمها: كتوكتو المصرى"، و"الأسرار السبعة لمكتبة الإسكندرية"، و "نابليون ومحمد"، وكلها نشرت فى فرنسا .

المترجمة فى سطور :

حصلت أمل حسن الصبان على ليسانس كلية الألسن عام ١٩٨٢ وعينت معيدةً ، ثم حصلت على ماجستير ثم دكتوراه الألسن فى الترجمة ، وكان موضوع رسالة الدكتوراه: "دراسة للدلالات الاجتماعية والدينية لأعمال أندرية جيد المترجمة إلى العربية".

شاركت فى تأليف قاموس المصطلحات السياسية والمؤتمرات ١٩٩٥ وترجمت العديد من المؤلفات فى الصحف والمجلات المصرية والعربية مثل الأهرام ، والعربى ، وأصدر لها المشروع القومى للترجمة "الجمهورية العالمية للآداب" .

المراجع فى سطور :

- أ. د. أحمد زكريا الشلق

- أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب جامعة عين شمس (رئيس قسم التاريخ) .

- أهم مجالات البحث والدراسة :

١ - التاريخ الفكرى والثقافى لمصر والعالم العربى .

٢ - تاريخ التنظيمات السياسية .

٣ - تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر .

- حيث إن مؤلفاته تدور فى هذه المجالات بشكل أساسى .

- عضو الجمعية التاريخية (مجلس الإدارة) .

- عضو اللجنة العلمية بمركز تاريخ مصر المعاصر بدار الكتب .

- رئيس تحرير سلسلة "مصر النهضة" التى تصدر عن مركز تاريخ مصر بدار الكتب والوثائق القومية .

- عضو لجنة التاريخ بالمجلس الأعلى للثقافة .